٣

أدبية السِّيَر (الرسائل) العُمانية

د. خميس بن راشد بن سيف المنذري
القوات المسلحة سابقا

الملخص:

إن كتابة أيِّ نصٍّ تقوم على أساس معنويٍّ، ويقصد به المحتوى الفكريُّ الذي يتكوَّن في نفس الكاتب، وأساس لفظيٍّ، ويقصد به التعبير عن الأفكار والمعاني بكلمات، وتحويل الكلمات إلى نصوصٍ، أي صروحٍ مشيَّدةٍ من أجناس الخطاب وأغراض القول. ويُعَدُّ البناء الفنِّيُّ المحكم للرسائل واستعمال الوظيفة الإبداعية للغة دليلًا على قدرة الكاتب في إيصال غرضه والتأثير على المخاطَب أو المتلقي. ولقد اهتمت الثقافة العربية بفنون الترسُّل، وأصبح هناك ما يعرف بأدب الرسائل، وسار كتَّاب الرسائل العمانيون في كتابة رسائلهم على نهج الثقافة العربية العامة؛ وقد تختلف الأساليب نظرًا للخصوصية التي تميَّزت بها الثقافة العُمانية.

تركَّزت الوظيفة التواصلية للرسائل العُمانية على إيصال مضمونات تعالج قضايا من حياة المجتمع اليومية، لكن كتَّابها لم يكتفوا بأن تؤدي رسائلهم تلك الوظيفة؛ لذلك الزمان فحسب؛ بل أرادوا لها الخلود، ولذلك أعطوا شكل رسائلهم ومضمونها اهتمامًا كبيرًا، فطوّروا الخصائص البنيوية العامة في نصوصهم، واستفادوا من التراث الدينيِّ والثقافيِّ والتاريخيِّ، واتَّبعوا في سردهم للأحداث أسلوب المحاكاة للوقائع والأقوال، فخرجت بعض مقاطع نصوصهم في صورة قصصية تثير في المتلقي إحساسًا جماليًا، وتولد لديه انفعالات تلامس العاطفة.

وناقش هذا البحث أدبية السِّيَر (الرسائل) العُمانية من حيث مراحلها التاريخية، وتوصل إلى أن رسائل الفترة الأولى التي سبقت الانقسام والتفرقة نتيجة عزل الإمام الصلت بن مالك عام ٢٧٢هـ أكثر إبداعًا، وأقرب انتماءً للأجناس الأدبية، فكانت تمثل نصوصًا حضارية في أشكال أدبية. وفيما يخص جزالة الألفاظ فقد سعى جل كتَّاب الرسائل إلى اختيار أسهلها، والابتعاد عن الوحشي منها وغريبها؛ ولهذا جاءت ألفاظ رسائلهم وتراكيبها مناسبة لثقافتهم العامة المتصفة بالحضور الدينيِّ. وفي الإيجاز والإطناب لم يكونوا على مستوى واحد، إذ تختلف النصوص باختلاف الكتَّاب أنفسهم، وموضوع الرسالة وغرضها، والبيئة التي كتبت فيها. وقد استعمل الكتَّاب البديع في نصوصهم، لكنهم لم يسرفوا فيه، ولم يكن استعمالهم له بقصد تحبير كتاباتهم وتنميقها؛ بل جاء فطريًا وعفويَّ الخاطر موافقًا لمقتضى الحال بعيدًا عن التَّصنُّع والتَّكلُّف.

Abstract:

Literary Value of Omani Biographical Anthologies

Any text has a semantic basis represented in its content and a syntactic level (lexicon) represented in the expression of the ideas, as perceived by the writer, by employing words and phrases and further developing them into communication of various lengths to convey the intended meanings. The impressive syntactic structure of the messages and the creative use of the language demonstrate the writer's ability to convey his purpose vividly and capture the attention of the reader or recipient. Arab culture exalted and glorified the art of anthologies considerably and eventually led to the emergence of "the art of anthology writing". The Omani writers too have followed suit and penned their anthologies in line with the general Arab cultural style. However, due to the peculiarity of Omani culture, albeit there might be scope for variations.

The Omani anthologies have in general attempted to convey certain contents that tackle the daily life problems encountered by the Omani society. They did not only intend their anthologies to address the challenges of their time but went way beyond their time space, which illustrates why they were so careful about the form and the content of the anthologies. To that end, they developed the general structural features in their texts and availed on the religious, cultural and historical heritage. In their narration of the events, they followed the simulation method to vividly portray the events and sayings so that some of their texts emerged in kind of imagery narration that appeals to the aesthetic tastes of the readers and evokes the kind of sensations and captivates their emotions.

In this research, I have discussed the Omani art of anthology writing through different historical stages. I have concluded that the anthologies of the earlier period prior to division and conflict due to the removal of Imam Al-Salt bin Malik in ٢٧٢H was more creative and more inclined towards the literary genres. Therefore, they represented civilizational texts in literary forms. As for the eloquent expressions, most of the anthology writers have managed to select the most attainably convenient expressions and avoided the outlandish ones. Therefore, the wording and construction of their anthologies generally reflected their overwhelmingly mystical and religious leanings. However, in matters of brevity and elaboration, the anthologies were markedly different depending on the motive of the writer, subject and purpose of the anthologies and the prevailing circumstances.

The writers have used figurative language only reservedly and avoided empty and purposeless expressions. Rather, their anthologies were spontaneous, intuitive and quite devoid of artificiality and unnaturalness.

مقدمة:

للغة وظيفتان رئيسيتان: وظيفة التواصل وهي أم الوظائف، ووظيفة الإبداع وهي فنِّيَّة خاصة، إذ تتعدى وظيفة اللغة كونها وسيلة للتفاهم ونقل الأفكار، إلى كونها أيضًا وسيلة للإبداع، ويستعملها المبدع استعمالاً خاصًا يجعلها ذات معالم وسمات تميِّزها عن لغة التفاهم العادية بفضل خصائصها الفنِّيَّة، فبواسطتها يكسو المبدع أفكاره ألوانًا زاهية، ويحيي جوامد الكلم، ويظهر قدرته الذاتية الخاصة على صياغة الكلام الذي من خلاله يدهش القارئ ويؤثر فيه بما يحمله من إحساسات جمالية وانفعالات عاطفية، ويُخلِّد العمل الفنِّيَّ.

وتُعَدُّ الرسائل من أقدم وسائل التواصل بين المتخاطبين وأهمها، ولقد سعى كتَّابها إلى التأنق فيها عبر العصور، سواء أكان ذلك من خلال بنائها الفنِّيّ، أم لغتها الإبداعية، أم حسن استعمال المخزون الثقافي، إذ أُطْلِقَ على هذا النوع من المخاطبات أدب الرسائل. ويعامل الدارسون من قدماء ومحدثين تلك الرسائل معاملة النصوص الأدبية، وقد شاع في تعريف الأدب أنه: ذلك الفنُّ الكلاميُّ الجميل الذي يُعَبِّر عن العقل ويصوِّر الشعور، وكلام العرب على صنفين: منظوم ومنثور. يقول ابن خلدون: «اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنَّين: في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى. وفي النثر، وهو الكلام غير الموزون»[٢]. والرسائل في عمومها تنتمي إلى النثر الفنِّيّ، وقد ربط بعض القدماء تعريف الرسائل بمفهوم الشعر. فالرسالة عند أبي هلال العسكري «.. كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية»[٣]. ويقول ابن طباطبا العلوي: «الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول»[٤].

وهذه التعريفات تنسب إلى عموم الرسائل عند التسليم بأدبيتها، أو يراد بها الرسائل الأدبية، أما عند الدراسة التفصيلية للبحث في مدى أدبية الرسائل فليست جميع الرسائل داخلة ضمن مجال الأدبية، وهذا مرجعه الوظيفة التواصلية المطلوب من الرسالة تأديتها، فقد يدوّن الكاتب رسالته بلغة غير أدبية إذا كانت وظيفتها تأدية غرض آنيٍّ ومعالجة قضية قائمة، وهذا يدخلها ضمن أجناس الخطاب وقد تكون نصًا حضاريًا إذا كانت الرسالة تعبِّر عن مقومات حضارية، والنص الحضاري كالنص الأدبي لا تدرك مقوماته إلّا من خلال اللغة.

إن الوظيفة التواصلية للسِّيَر (الرسائل) التي تمثل مدوَّنة البحث وعددها أربعة وثلاثون هي إيصال مضامين تعالج قضايا من حياة المجتمع اليومية، وصنَّفناها على أساس سياسيٍّ، واجتماعيٍّ، وعسكريٍّ، غير نادَّةٍ أحيانًا عن مجال الأدبية؛ ذلك أن كثيرًا من كتَّاب الرسائل أدخلوا في نصوصهم مكوِّنات ذات مدلولات أدبية بدءًا من تفاعل الكاتب مع المضمون، وما يظهره من مشاعر وأحاسيس عند مناقشته القضية المطروحة؛ أي غرض الرسالة، ومحاولته إخراج الأفكار والمعاني بصورة مبتكرة مشوقة، وصياغتها بأسلوب ضمن مبانٍ وتراكيب معينة يجعلها على درجة عالية من الجمال والتأثير والجودة. وبهذا لم تكن هذه النصوص وقفًا على المرسَل إليه، وهو القارئ الضمني، بل موجَّهة أيضًا إلى الجمهور الذي يمثل القارئ الحقيقيَّ لها؛ لأن كتَّابها أرادوا لها الخلود ليُستفاد منها في عصرهم والعصور اللاحقة؛ ولهذا سعوا أن تكون لغة نصوصهم لغة فنِّيَّة مُثْلى لافتة للنظر، تقوي المعاني وتحقق الغرض. وتلك أدبية يمكن الوصول إليها من خلال دراسة قضية الأدبية والمرحلية التاريخية، وقضية الأدبية في صلتها بالقيمتين التأثيرية والجمالية.

الأدبية والمرحلية التاريخية:

أقدم الرسائل في مدوَّنتنا تنسب إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين، بعث بها الشيخ منير بن النيِّر الجعلانيّ[٥] إلى الإمام غسان بن عبد الله اليحمديّ[٦]، وهي رسالة عسكرية[٧] غرضها الحث على الجهاد وإعداد الأمة للنفير، وآخر الرسائل إقرار حكم المحكمة[٨] الصادر بتأميم أموال بني نبهان كتبت عام ٨٨٧هـ. هذه المرحلة التاريخية الممتدة سبعة قرون وما شهدته من أحداث وتغيِّرات في واقع المجتمع العُمانيّ أثرت على المجال الترسُّلي بشكل عام، وعلى الأساليب الفنِّيَّة والقدرة التأثيرية والصورة الجمالية على وجه الخصوص. فمن حيث غزارة الإنتاج استحوذ القرن الأول من هذه الفترة (ق٣هـ) على نصف عدد رسائل المدوّنة، وحوالي ٦٨٪ من عدد صفحاتها، واتسمت رسائل هذه الفترة بالمقدمات الطوال المؤسسة للعلوم الشرعية وسِيَر السَّلف.

وأما من الناحية الفنِّيَّة فإن تأثير الثقافة العربية في بناء الرسائل وتقسيماتها واضح في ترسُّل طبقة الكتَّاب القدماء في شكلها العام، إذ منهم حملة العلم من البصرة إلى عُمان في القرن الثاني الهجري وتلاميذهم، لكن العمانيين طوَّروا أساليب الترسل لديهم، واستطاعوا

أن يكوّنوا مدرسة خاصة بهم تتناسب مع تليد موروثهم وروح استقلالهم؛ فابتعدوا عن التمجيد الشخصي المتبع في المكاتبات الديوانية، وتحرَّروا من القوالب الجاهزة التي كانت سائدة في المراسلات إبّان الدولة الأموية والعباسية، فأصبحت نصوصهم توازن بين مقتضيات المقام الذي يمنح الإنشاء تنوعًا خاصًا فيثريه، والمحافظة على الأسس العامة للبناء الفني بما يتلاءم مع قدر المخاطب وغرض الرسالة.

ولقد تنبه كتَّاب الرسائل إلى أهمية الناحية الجمالية في مجال الترسل، ولهذا سعوا ألَّا تقتصر الوظيفة التواصلية لرسائلهم على الإفهام أو الإخبار فحسب، بل يطلب منها أن تؤثر في قارئها من خلال سبكها النثريِّ الفنِّيِّ ذي الصبغة السردية، وهذه الخاصَّة في النثر العربي أشار إليها نقاد الأدب القدماء، يقول ابن طباطبا: «من الأشعار أشعارٌ محكمةٌ متقنةٌ أنيقةُ الألفاظ حكيمةُ المعاني، عجيبةُ التأليف إذا نُقِضت وجُعلت نثرًا لم تبطل جودةُ معانيها، ولم تفقد جزالةَ ألفاظها»[٩]. ولذلك أعطوا شكل رسائلهم ومضمونها اهتمامًا كبيرًا، فطوّروا الخصائص البنيوية العامة في نصوصهم، واستفادوا من التراث الديني والثقافي والتاريخي، وأدخلوا أساليب البديع حسب مقتضيات الحال دون تكلف أو مبالغة، واتَّبعوا في سردهم للأحداث أسلوب المحاكاة للوقائع والأقوال، فخرجت بعض مقاطع نصوصهم في صورة قصصية تثير في المتلقي إحساسًا جماليًا، وتولد لديه انفعالات تلامس العاطفة.

إن رسائل المدوّنة ليست على نسق واحد في الأسلوب، ولا متحدة في خصائص الخطاب الذي قامت عليه، ولا على قدر متساوي في مجال الأدبية، وإن كانت الأغراض التي تعالجها متشابهة، والمجتمع من حيث التكوين الجنسي والديني لم يتغيَّر، إلّا أن هناك عوامل معيَّنة بحاجة لدراستها وتحديد معالمها. ولأسباب منهجيّة عمليّة قسَّمنا المرحلة التاريخية لمدوّنتنا إلى فترتين: الفترة الأولى فترة البناء الحضاريِّ للمجتمع العُمانيِّ التي امتدت منذُ اختيار الإمام الوارث بن كعب عام ١٧٩هـ وحتى عزل الإمام الصلت بن مالك أو اعتزاله سنة ٢٧٢هـ إذ شهدت عُمان خلال تلك الفترة استقرارًا سياسيًا وأمنيًا، ونموًا اقتصاديًا وتجاريًا،

وتطورًا علميًا وفكريًا وتلاحمًا اجتماعيًا ملحوظًا. الفترة الثانية ما بعد سقوط الإمامة الأولى عام ٢٧٢هـ وحتى القرن التاسع الهجري، وهي فترة الاختلاف السياسيِّ والفكريِّ، والصراع

العسكريِّ الداخليِّ والخارجيِّ، وغياب القيادة الدينية والسياسية الفاعلة أو تغيبها.

والعوامل، هي:

أولًا: فئة الكتَّاب:

تميَّز كتَّاب رسائل الفترة الأولى بالتأهيل العلمي، إذ تلقَّوه من مصادره المباشرة في البصرة كما أشرنا، أو ممن تتلمذ عليهم، وشهدت عُمان في القرن الثالث الهجري حركة علمية وفكرية متطوّرة، وكثر التأليف، وبرز عدد من العلماء. يقول الشيخ السالمي: «ثم امتلأت عُمان بالعلماء الفضلاء أهل الثقة والورع والإخلاص وصدق النية حتى ضرب بذلك المثل، فشبهوا العلم بطائر باض في المدينة وفرخ في البصرة وطار إلى عُمان»[١٠]. وإلى جانب التأهيل العلمي تميَّز كتَّاب الفترة الأولى بثقافة واسعة، وإنتاج فكريٍّ غزير. هذا التكوين الديني والثقافيِّ والفكريِّ كان له الأثر في تميُّز الأساليب الفنِّيَّة لرسائل تلك الفترة، ومجال الأدبية الذي أحاط بكثير من النصوص، إضافة إلى تفعيل ملامح من حقول الحضارة العُمانية. ففي رسالة بعث بها الشيخ هاشم بن غيلان[١١] ومجموعة من العلماء إلى الإمام عبد الملك بن حميد العلوي[١٢] ينصحونه فيها بمراجعة موقفه من منصب الإمامة مع كبر سنه. وقبل عرض الموضوع أرادوا أن يبيِّنوا أهمية التناصح بين العلماء ورجال السلطة وأن النصيحة من الدين، فجاء النص: «.. وذلك أنا وإياك على دين وجبت فيه الحقوق علينا وعليك بحقوق مؤداة، والحق علينا لك محض النصيحة في كل أمر وإن خالف فيه الهوى، والحق عليك قبول ذلك وإن استمر مذاقه [مرُّ المذاق] وثقل حمله»[١٣].

تحليل النص: وجود هذا النص قبل عرض غرض الرسالة حقق للكاتب مقصد الإقناع واستمالة المخاطَب، وهذا من أنجع الأساليب الفنِّيَّة في بناء خطة الرسالة. بدأ الكاتب ببيان أهمية المناصحة وربطها بالدين لاستنهاض العاطفة الدينية، ـ وهنا لا بد للمتلقي من استحضار حديث الرسول ﷺ «الدين النصيحة...»[١٤] ـ وحوّل النصيحة إلى حقوق متبادلة ومتساوية وهذا مظهر حضاري، واستعمل ضمير المتكلم الجمع لتبقى الرسالة جماعية، وضمير المفرد للمخاطَب لتخص الإمام نفسه. وعند تفصيل النصح ذكر أن الناصح يجب أن يكون صادقًا وإن خالف ذلك هواه؛ وهذا دليل على الإحساس بالمسؤولية العلمية والفكرية والاجتماعية.

وأما المنصوح فالحق عليه قبول ذلك، وحوّل الكاتب هذا القبول من شعور معنوي إلى محسوس مادي له طعم ووزن على سبيل الاستعارة المكنيَّة «وأن استمر مذاقه وثقل حمله»، فكست النص جمالًا وزادته قوة وكان لذلك وَقْعٌ في نفس المتلقي.

وأما كتَّاب رسائل الفترة الثانية فكان لهم أيضًا نصيبٌ من التأهيل العلميِّ والفكريِّ والثقافيِّ، لكنهم بمستوى أقل من الأوائل، ويمكن وصفهم أنهم متعلمون مقلِّدون، فجاءت رسائلهم مقلدة من الناحية الفنِّيَّة، خالية من منهج الاستنطاق الحضاري كما هو عند الأوائل، وأقل إبداعًا في مجال الأدبية وإن كانت هناك محاولات في بعض النصوص. وهذا مثال مشابه من حيث الغرض كتبه أحد العلماء البارزين في عصره، القاضي محمد بن عيسى السري[١٥] إلى الإمام راشد بن علي[١٦] عام ٤٧٢هـ ينصحه بتحسين أداء الحكومة، والكفّ عن أخطاء ارتكبت ومحاسبة المسؤولين عنها، ودعوة الإمام إلى التوبة.

يقول: «.. وأن تتوبوا إلى الله تعالى من جميع ذنوبكم وتتقوه عزّ وجل في سركم وجهركم مع العمل بطاعته وأداء جميع فرائضه واجتناب جميع محارمه والاقتداء بالسلف الصالح من المسلمين مع الورع الصادق والوقوف عن كل شبهة وأن لا تعملوا عملًا إلا بحجة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانتهاء عنه، والموالاة في الله والمعاداة فيه، ومشورة المسلمين العلماء، أهل العلم والورع فيما يعرض عليكم من الأمور»[١٧].

تحليل النص: إن الدارس للمدوّنة لا يلقى معاناة في المقارنة بين النصّين، فالأخير صِيغ في صورة اتهام مباشر خارج عن اللباقة المعهودة بين العلماء والأئمة، وهذا مرجعه ضعف العلاقات الشخصية بين علية القوم في الدولة، كذلك لم يراعَ الأسلوب الفنِّيُّ وقواعد الترسل في خصائص الخطاب السياسي، فالرسالة لا تسير على خطة بناء معيَّنة، والنَّص المقتطع لم نستطع تحديده، هل واقع ضمن صدر الرسالة؟ وهل وضع لخدمة المتن أم هو المتن نفسه؟ علمًا أن غرض الرسالة هو طلب الإمام أن يعلن توبة صريحة عما ارتكب من أخطاء في حق المجتمع حسب قواعد فقه الإباضية.

أما لغة الخطاب فقد استعمل الكاتب وظيفة التوصيل اللغة ولم يتعدَّ ذلك، فجاء النص للإخبار في صورة مواعظ مع الاتهام المبطَّن للمتلقي، قال: «والنهي عن المنكر والانتهاء عنه»، وهذا أبعد النص عن مجال الأدبية.

ثانيًا: السلطة الدينية والسياسية:

اعتمد العُمانيون نظام الإمامة الإسلامية كما أصَّلها فقه الإباضية في إدارة شؤونهم بعد استقلالهم عن الدولة المركزية الأموية ثم العباسية، ومنح هذا النظام العلماء دورًا كبيرًا في تشريعات الحكم والإشراف عليه، فالإمام يتم اختياره من بين العلماء وتحت إشرافهم من خلال مؤسسة أهل الحل والعقد، التي تمثل السلطة التشريعية العليا، والمرجع الدينيَّ والحقوقيَّ والسياسيَّ للدولة، والنبض الروحيَّ والأخلاقيَّ للمجتمع. واستمر مفهوم تطبيق مبدأ الشورى والتعاقد في إدارة البلاد حتى عزل الإمام الصلت بن مالك أو اعتزاله عام ٢٧٢هـ.

ينتمي كتَّاب رسائل الفترة الأولى إلى مؤسسة العلماء؛ وبهذا فهم يتمتعون بسلطة دينية وسياسية، ومسؤوليات اجتماعية معترف لهم بها، فانطبع ذلك في ترسِّلهم، فازدوجت وظيفة رسائلهم؛ فإلى جانب وظيفة توصيل الغرض للمتلقي، حرص كتَّابها على جعلها نصوصًا حضاريةً تميل إلى نزعة الخلود، لتبقى مثالًا يحتذى، ويستلهم منها الحلول لمعالجة المواقف المشابهة في العصور اللاحقة، فعمدوا إلى سلطتهم الذاتية، ومقوماتهم الشخصية، ومكانتهم الاجتماعية، وأبدعوا في استعمال لغتهم الفنِّيَّة، فتحوّلت نصوصهم إلى فضاء محسوس ذات قيمة حضارية وفنِّيَّة وجمالية، تشد المتلقي إلى إعمال الفكر، وتفعيل المثاقفة، واستنهاض المدارك للوصل إلى مدلولاتها العميقة خارج الغرض الأساسي.

ومن النصوص التي استعمل كاتبها سلطته الدينية والسياسية ومسؤولياته الاجتماعية في أسلوب حضاريَّ، رسالة بعث بها الشيخ موسى بن علي[١٨] إلى الإمام عبد الملك بن حميد يطلب منه عزل أحد الولاة بعد تعيينه،

يقول النص: «واعلم رحمك الله أن كتابي هذا عام لجميع ذلك، ومما دعاني إلى الكتابة إليك ولاية رجل أتانا أحببنا إلقاءه إليك من كراهية من كره ولايته، فكرهنا ما كره المسلمون المجتمع من ذلك، ورأيت الكتابة فيه إليك للقول الذي قيل، والسلامة لك في أن لا توليه، فإني لا أرى ولايته على ما بلغنا، وفي المسلمين خير كثير وسعة وغنى يغنيك الله بمن هو أفضل وآمن لك في العاقبة عما ترتاب به، وقال المسلمون العلماء لا خير في الريبة».

تحليل النص: بدأ الكاتب نصَّه بالدعاء، وهو تعبير عن تقاليد المخاطبة وآداب التعامل الاجتماعيَّ بين المتخاطبين، ومدعاة للملاطفة في صناعة الخطاب. بعدها أسس الكاتب رأيه على نظرة المجتمع للحدث، «فكرهنا ما كره المسلمون من ذلك». إن القضية ليست شخصية وإنما هي صدى لواقع اجتماعيٍّ في التعامل مع ولاة الأمر، ومسؤولية الكاتب الاجتماعية تحتم عليه أن يُصْلِحَ ما يدعو إلى الفساد والإفساد، وهذا مظهر حضاري لا يضطلع به إلّا المصلحون. أما مسؤوليته الدينية فَيُعَبِّر عنها بأهمية المحافظة على نظام الإمامة المتمثل في شخص الإمام أن يبقى سليمًا متماسكًا: «والسلامة لك في أن لا توليه»، وكذلك مسؤوليته السياسية فهو جزء من اتخاذ القرار: «فإني لا أرى ولايته». بعد ذلك يُعَبِّر الكاتب عن مجتمعه الذي يُخبر قدراته في مدِّ الدولة بالمسؤولين الأكفاء: «وفي المسلمين خير كثير وسعة وغنى يغنيك الله بمن هو أفضل وآمن لك في العاقبة عما ترتاب به». إن إخضاع النص لأدوات تحليل الخطاب، أسهم في إظهار أدبيته من خلال تصنيفه نصًا حضاريًّا يحمل ظواهر وتجليات لا يمكن إدراكها إلا باللغة عبر الأساليب والمباني والتراكيب التي صاغها كاتب النص.

ظلت حرفة كتابة الرسائل بيد العلماء في الفترة الثانية، بيد أنه قد تقلَّص سلطانُهم، إذ لم تعد هناك سلطة دينية تحكم المجتمع، وتفرقت السلطة السياسية بين القبائل والمتحزبين، وأصبح العلماء إما تابعين أو منزويين إلَّا القليل منهم، ولم تعد لهم سلطة على المجتمع، وانحصرت وظيفة جل الرسائل في توصيل الغرض للمتلقي، وحل التقليد مكان الإبداع، وانزوت اللغة الفنِّيّة، فضاقت الأدبية بعد ما رَحُبَت بالمترسلين الأسلاف. وهذا مثال لرسالة بين عالمين من كبار علماء النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، أحدهم كان له مطلبٌ دنيويٌّ في مناصب الدولة فَحُرِمَ منها فاتخذ موقفًا ما؛ والآخر يدافع عن موقف الدولة وعدل الإمام، علمًا أنه في تلك الفترة كان يحكم عُمان أكثر من إمام وأمير[١٩].

النص: «وأما ما ذكرت أنه لم يصلح لك في هذه الدولة حال ولا يد ولا احتيال، ولا صار لك فيها حظوة، ولا يقضى لك فيها وطر ولا شهوة، فلعمري لقد شملك أنت وسواك عدلها، وأعم كافة أهل عُمان فضلها، صغيرهم وكبيرهم غنيّهم وفقيرهم، مع تحسن صنع هذا الإمام وأفعاله وطيب نيّته وإقباله. فارتفع بذلك جميع الفساد وآمن القري فيها

والباد، مع أن هذه الدولة -بحمد الله- ما تَقَدَمَ لك فيها مساعدة، ولا معونة في أمرها ولا معاضدة، ولا كنت ممن حرص عليها ولا بذل نفسه فيها، فهلّا جعلت ذلك كفافًا ولزمت ما يعنيك تورعًا وعفافًا،

فلا نرضى أن يكون غيرك يصلى حرها ويكابد أذيّتها وشرها، منغصة في دنياه عيشته، متخوّف أن تفوته آخرته، وأنت سالم في رياض إنعامها، معتزل عن حرِّها وكُلامها[٢٠]»[٢١].

تحليل النص: لقد فقد العلماء سلطتهم الذاتية الدينية والسياسية والاجتماعية فأصبحوا يبحثون عنها إما بالتودِّد والتقرب إلى السلطة الحاكمة أو طلبها منهم علانية، وتحول جهد العلماء من الإسهام في البناء الحضاريَّ وإصلاح المجتمع، إلى مناكفات بينهم أفقدتهم ثقة المجتمع وغلَّبت عليهم السلطة القبلية، وشكَّلوا عاملًا محركًا في زيادة الفرقة وتأجيج الصراعات بين القبائل والفئات المتحزبة إلاَّ قليلًا منهم. هذا النص أنموذج على كثير من رسائل تلك الفترة، إذ فقد السِّمة الحضارية المعهودة في الرسائل المتبادلة بين العلماء، وهذا قلل من بروز مقوماته الأدبية رغم محاولة الكاتب صياغته بلغة فنِّيَّة، وإدخاله محسَّنات بديعية، لكنها جاءت شبه مُتَكَلَّفَة، فجاء النص في مجمله غير قادر على أن يثير لدى القارئ أحساسيس الجمال، وخاليًا من بذرات الخلود.

ثالثًا: البيئة المحيطة:

شهدت عُمان تحوُّلات تاريخية مختلفة منذ اعتناق أهلها العقيدة الإسلامية، ففي البدء انضوت تحت قيادة الدولة الإسلامية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ثم سعت إلى الاستقلال فدخلت في صراع سياسي وعسكري مع الدولة الأموية، ثم الدولة العباسية حتى تم لها ذلك في أواخر القرن الثاني الهجري. في أثناء فترة الاستقلال التي استمرت قرنًا من الزمان تحقق للمجتمع العُماني القبلي الحد الأدنى من الوحدة والتوافق، وأقيم نظام الحكم على مبدأي الشورى والانتخاب، وانضوت البلاد تحت قيادة مركزية واحدة تقبل الرأي والرأي الآخر،

واستتب الأمن مع وجود قوة عسكرية قادرة على حماية الاستقلال، فنعمت البلاد بالرخاء الاقتصادي والتجاري، وانتشر التعليم، وعمت الثقافة الدينية والعامة بين فئات المجتمع.

يصف ولكنسون جزئية من النظام القائم أيام الإمام الصلت بن مالك، فيقول: «وشهدت إمامته؛ أي الصلت، تطورًا هائلًا في قوانين الشريعة، ويبدو أن حكمه كان قريبًا جدًا من المُثُل الإباضية»[٢٢].

على ضوء هذه المعطيات الحضارية صاغ كتّاب رسائل تلك الفترة نصوصهم لتتوافق مع الانفتاح الذي شهده المجتمع، فجاءت مضموناتها لبنات في البناء الحضاريِّ، وصيغت بلغة فنِّيَّة خاصة متجاوزة وظيفة التواصل، فيها من الإبداع ما يحقق إثارة المتلقي، ومن قوة الألفاظ ما يفي بالإقناع والبقاء. وهذا مثال من توجيهات الإمام الصلت بن مالك إلى الحملة العسكرية التي سيَّرها لاستعادة جزيرة سقطرى عام ٢٥٣هـ وتُعَدُّ أكبر حملة بحرية أخرجتها عُمان في ذلك العصر، قال: «فافهموا عن الله، واقبلوا ما جاء من الله، ولا تُرَخِّصوا لأنفسكم في شيء من طاعته الواجبة دخلًا[٢٣] ولا كسلًا، ولا تُبَيِّتوا شيئًا من معاصيه عبلًا[٢٤] ولا خبلًا[٢٥]، ولا تركنوا إلى من حادَّه تعصُّبًا ولا ميلًا، فأخاف عند ذلك أن يخذلكم»[٢٦]. وفي ختام نصه ضمَّنه الآية الكريمة: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢٧].

تحليل النص: النص جاء في مقدمة الرسالة وأراده الكاتب أن يكون نصًا وعظيًّا لتحريك المشاعر، أو ما يعرف في العصر الحديث: «بناء الروح المعنوية لدى المقاتل وتقويتها»[٢٨]. ويُعَدُّ الوعظ عملًا من الأعمال التواصلية الأدبية، وغرضًا انتقل من فن الخطابة إلى مجال الترسل. لقد استغل الكاتب الوازع الدينيَّ في صدر رسالته وهو من أقوى المحفِّزات للبذل والتضحية، وحوَّل النص إلى خطاب تعليميٍّ تربويٍّ في قالب أدبيٍّ يخاطب النفس ويرشدها إلى الفضائل في تدرج يثير العاطفة والانفعال، بدأه بأهمية المعرفة عن الله وقبول ما جاء منه سبحانه، بعدها توجيهات ثلاثة صاغها في أسلوب نهي: لا ترخِّصوا لأنفسكم في العبادات الواجبة، ولا تبيِّتوا ـ العمل ليلًا ـ في أنفسكم المعاصي الباطنة، ولا تركنوا إلى من حادَّ الله وحارب شرعة، وربط الكاتب إتيان هذه الآثام بخوفه عليهم من الخذلان، وضمَّنها الآية القرآنية الدالة على أن من ينصره الله لا يمكن أن يُهْزَم، ومن يخذله سبحانه فلا ناصر له.

وهذا النص موجَّه إلى أفراد الحملة وسوادهم من عامة الشعب، وهذا دليل على المستوى

العلميِّ والثقافيِّ والانسجام الحضاريِّ الذي يسود المجتمع.

في الفترة المتأخرة فقدت عُمان وحدتها ومزقتها الحروب والصراعات وعمَّت الفوضى في ربوع البلاد، وتغيَّر المفهوم الحضاريُّ؛ فلم يعد هناك انسجام بين فئات المجتمع، وغُيِّبَ التعاون والانتماء وهما أساسا البناء الحضاري والدَّوام، إلَّا في فترات متقطعة.

وضمن هذه البيئة المحيطة يمكننا أن نُصَنِّف رسائل تلك الفترة أنها لا تعدو أن تكون إخبارية، اتسمت لغتها بالاستبعاد والإنكار، وابتعدت النصوص عن مقومات النَّص الأدبيِّ أو الحضاريِّ ومحدَّداته، وغدت الجهود فردية وأهدافها قصيرة آنية. وهذا مثال على نص يحمل إعلانًا سياسيًا بتنصيب إمام من الطائفة الرستاقية (ق٦هـ) والخطاب موجَّه إلى الطائفة النزوانية وأتباعها، قال: «أما بعد يا أهل عُمان هذا كتاب قدمناه إليكم، وجعلناه حجة لكم وعليكم، ليزداد المسلمون يقينًا إلى يقينهم، ويتحققوا ما هم متعبدون به من الاعتقاد في دينهم، ويعلم أولو الشك والارتياب عدل ما دخلنا فيه، ويعرفوا ضلالة مَنْ صدَّهم عما دعوناهم إليه، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحي من حيَّ عن بيِّنة ويحق القول على الكافرين».

تحليل النص: إن أصل الخلاف الذي افترق عليه أهل عُمان سياسي، عزل الإمام الصلت بن مالك أو اعتزاله سنة ٢٧٢هـ بعدها يتطوّر إلى خلاف سياسيٍّ فكريٍّ، ثم زُجَّ بالعقائد عندما اشتدَّ الخلاف بين المدرستين الرستاقية والنزوانية. إن سياق النص يصوِّر حالة البيئة المحيطة بكتَّاب تلك الفترة، ومدى تحوُّل لغة الخطاب من الأسلوب الفنِّيِّ إلى لغة متسمة بالانفعالات النفسية، والاستماتة في إثبات رأي المخاطِب وبيان خطأ المخاطَب بالتشكيك في العقيدة مرة، والاتهام بالضلال مرة أخرى، وأخيرًا التكفير. لقد أُريد للنص أن يكون ضمن الأسلحة التي يشهرها هذا الطرف في وجه الطرف الآخر، فجاء ضمن مقاييس تلك البيئة، فاختفت منه الظواهر الحضارية، واستُعْمِلَتْ ألفاظ في سياق حجاجيٍّ أقرب إلى التقريع، ووضعت خطة بنائه في صبغة خطابية لها صلة بالمحاورات الشفهية كما في صدر النص «أما بعد يا أهل عُمان ..». لقد كان لهذه المؤثرات دور في إبعاد النص عن مجال الأدبية، وهو العنصر الذي سعى إليه جل كتَّاب الرسائل؛ ليكون لرسائلهم مكانٌ ضمن الأجناس الأدبية.

الأدبية في صلتها بالقيمتين التأثيرية والجمالية:

يسعى كتَّاب الرسائل أن تكون نصوصهم ذات قيمة فنِّيَّة وسياقية يلتحم بهما النص مع الوظيفية التوصيلية؛ ولتحقيق ذلك لجأوا إلى خصائص اللغة وأساليبها لتجويد كتاباتهم، «والكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمَّة وآلات كثيرة»[٢٩].

ولقد فعَّل كتَّاب مدوَّنتنا خصائص اللغة وأدواتها لجعل نصوصهم ذات قِيَم تعبيرية وشعورية وجمالية بقصد تأكيد صلتها بالأجناس الأدبية إضافة إلى وظيفتها التوصيلية. وفي أثناء دراستنا قمنا بتحليل أبرز الأدوات التي استعملها كتَّاب الرسائل في هذا المجال.

جزالة الألفاظ وسهولتها:

اهتم العرب باللفظ في لغتم قدر اهتمامهم بالمعنى، إذ أصلحوا ألفاظهم وحسَّنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها لخدمة المعاني. يقول ابن رشيق: «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته»[٣٠]. وجزالة الألفاظ وسهولتها مدعاة للتأثير في المتلقي وتحريك الأحاسيس الجمالية لديه، وتحويل الأثر إلى عملٍ فنِّيٍّ يتصف بالبقاء؛ ولهذا يجب الابتعاد عن الوحشي من اللفظ الثقيل على السمع. يقول ابن الأثير: «للفظ عيبان: أحدهما أنه غريب الاستعمال، والآخر أنه ثقيل على السمع كريه على الذوق». ويفصِّل ذلك في مكان آخر فيقول: «لست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيًا متوعرًا عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينًا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكًا سفسفًا، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس»[٣١].

ولقد سعى جل كتَّاب مدوَّنتنا إلى اختيار أجزل الألفاظ وأسهلها، والابتعاد عن الوحشي منها وغريبها؛ ولهذا جاءت ألفاظ رسائلهم وتراكيبها مناسبة لثقافتهم العامة المتصفة بالحضور الديني، وطبيعة مجتمعهم الساعي إلى التحرر من كل القيود. وقد حاول بعضهم استغلال فنِّيَّتها ووقعها الموسيقيِّ لإبراز القيمة التأثيرية للنص، وتأنق الخصائص الجمالية فيه، وسنعرض نماذج معينة من نصوص المدوّنة.

ففي مقدمة رسالة الشيخ هاشم بن غيلان ومجموعة من العلماء إلى الإمام عبد الملك

بن حميد ينصحونه فيها بمراجعة موقفه من بقائه في المنصب مع كبر سنه، اختار الكاتب ألفاظًا سهلة وجزلة ليبيِّن أهمية منصب وليّ الأمر عند الله، فقال: «ونوصيك بتقوى الله، والقيام لله بسبيل ما جعلك سبيله، من الأمر الذي قد أحكم فيه وصيته، وأوضح فيه معرفته، وأخذ فيه من أهله الميثاق الغليظ والعهد الوثيق، ولأهله عنده جزاء في العقبى بالوفاء بذلك على ما كلفك في ذلك، وبالنقص على قدر ذلك، وكفى بالله مجازيًا وإلى الله تصير الأمور»[٣٢].

لقد ربط الكاتب توصيته بتقوى الله بأداء واجب الإمامة، واختار لفظ سبيل للتعبير عنها لأنها غير ثابتة الشخوص، بل هي مسار قد يؤدي إلى الفوز في حال الإخلاص، ويمكن أن يؤدي إلى التهلكة في حال عدم القيام بواجباتها. كذلك وصف عقد الإمامة أنه: «ميثاق غليظ وعهد وثيق»، وهذا وصف بليغ بمعانٍ سامية في ألفاظٍ جزلة معبرة عن أهمية المسؤولية الملقاة على وليِّ الأمر، وأحسن الكاتب عندما ربط ذلك العهد بحسن الأداء، وأن الله سبحانه يجزي في الآخرة من أوفى بحقها، ويعاقب من قصَّر في أدائها، وهذا مؤشر على براعة الكاتب وتمكُّنه مِن أدوات الكتابة لاستمالة المخاطَب والتأثير عليه في صدر الرسالة لخدمة غرضها.

وعندما أراد الإمام راشد بن سعيد أن يلخص مهمة وَالِيه الذي عيَّنه على صحار، اختار لخاتمة رسالة التعيين ألفاظًا ذات متانة لحمل معان متقابلة عميقة؛ مزاجها رجاء وخوف حيث الرِّضا من حسن إداءٍ والمساءلة من تفريط، وتحقق للكاتب الغرض المقصود من الكلام، قال: «.. فإن فعلت ما رسمته لك فذلك رجائي فيك وحاجتي إليك، وإن خالفته بعمل الباطل والجور وركونًا إلى الفعل المحرَّم المحجور فإني برئ من فعلك وأنت مأخوذ بما يجب فيه في نفسك ومالك فاتق الله في قولك وأعمالك»[٣٣].

لقد برع الكاتب في اختيار الألفاظ، وكذلك في حسن استعمال كل لفظ في موضعه، إذ استعمل لفظ: رسم، «فإن فعلت ما رسمته لك»، ولم يستعمل ما كتبته لك، أو وجَّهتك فيه، رغم أن التواصل بينهما أثر كتابي يحمل توجيهات سياسية من الإمام إلى الوالي. إن اختيار رسم في هذا السياق مجازي يتعدى الكتابة إلى تخطيط ورسم هندسي ودقة في التنفيذ. ومن جانب آخر فإن الرسم أبقى وإن زال الأثر. يقول ابن منظور: «الرَّسْمُ: الأثرُ،

وقيل: بَقِيَّةُ الأثر، وقيل: هو ما ليس له شخص من الآثار»[٣٤].

وفي موضع آخر أشار الكاتب إلى فعل المخاطَب وليس إلى شخصه، قال: «فإني برئ من فعلك» ولم يقل إني برئ منك؛ لأن العامل المشترك بينهما هو النتائج المترتبة على أفعال الوالي وليس شخصه، كذلك اختار الكاتب اسم المفعول مأخوذ، ولم يقل تؤخذ أو أخذت حيث تغييب الزمن ليبدو دون توقيت ليستحق الجزاء فور المخالفة، وهذا من حسن اختيار الألفاظ، أضفت على النص متانة في المعنى وقيمة جمالية في النظم.

ومن أمثلة اختيار الألفاظ الجزلة الدالة على المعاني المقصودة نصٌّ أورده الشيخ موسى بن علي بن عزرة في صدر رسالته إلى الإمام عبد الملك بن حميد، يناقشه فيها اختيار ولاة الأمر على مستوى الأقاليم، قال: «واعلم رحمك الله أنك بمكان لا يَحِلُّ فيه خذلانك، ولا كتمانك في معونة على صواب ولا نصيحة في خطأ، وقد نكره من خطئك كما نسر به من صوابك، ونصيحتك علينا حق، وغيبتك علينا حرام، ولا ينبغي لنا تركك ولا قطع النصيحة عنك».

لقد اختار الكاتب في بدء حديثه لفظ مكان للإشارة إلى منصب الإمامة، وهو لفظ مستعمل في التواصل اليومي، لكن نظمه في هذا السياق أوجد معنًى عميقًا للمنصب، وأضفى عليه تعظيمًا أكثر مما لو استعمل لفظ الإمام أو الإمامة؛ وذلك لرمزيَّته ومكانته الدينية والسياسية والاجتماعية، لدرجة أنه لا يجوز التخلي عمن كان فيه وخذلانه. كذلك استعمل لفظ معونة لمساعدة الإمام على الأمور الصالحة وقدمها على النصيحة في حال وقوع الأخطاء، بينما في الأمور الوجدانية قدم كره ما يقع من الإمام من أخطاء على السرور من أعماله الصائبة وهي الأعم. لقد جاءت ألفاظ النص سهلة منسجمة مع غرضها، صيغت في نَظْم متناسق يترك في النفس أثرًا جماليًا، ويؤثر في المتلقي بحسن القبول والإقناع.

تمثِّل صلة النثر بالشعر في الرسائل شكلًا من أشكال التداخل بينها وسائر الأجناس الأدبية، وهذا مثالٌ لما استعمله الملك محمد بن مالك[٣٥] (ق٦هـ) في رسالته العسكرية إلى موسى بن أبي المعالي الذي نُصِّب إمامًا في زمانه، إذ صدَّر رسالته ببيتين من الشعر تلخِّص مجمل الرسالة، وقد صيغت بألفاظ جزلة المظهر وعميقة المعنى: (البسيط)[٣٦].

مَهْلًا بَني عَمِّنا مَهْلًا مَوالينا لا تَبْعَثوا بَيْنَنا ما كان مَدْفونا

لا تَطْمَعوا أَنْ تُهينونا ونُكْرِمُكُمْ وَأَنْ نَكُفَّ الْأَذى عَنْكُمْ وتُؤْذونا

اشتدَّ الصِّراع بين الملك والإمام على السُّلطة وتحوَّل من صراعٍ سياسيٍّ إلى صدامٍ عسكريٍّ، وهذه الرسالة أولها دعوة للمصالحة بين الفرقاء وآخرها تهديد بالقوة العسكرية لحسم الموقف، تمامًا كما أشار الشاعر في البيتين، فكان اختيارهما تحقيقًا لمقصد الكاتب. اختار الشاعر لفظ مهلًا في بدء الحديث وكررها مرتين في الشطر الأول من البيت، وهو لفظ سهل لكنه جزل يؤدي المعنى المُراد، إذ يعني السَّكِينة والتُّؤَدة والرِّفْق والتباطُؤ، وهذا ما أراده الكاتب من خصمه، إذ عدم التعجل في إعلان القطيعة. وبدأ الشطر الثاني بلفظ تبعثوا مع وجود أداة النفي؛ وهو يشير إلى أن الخلافات بين الفريقين قد ماتت ودفنت ولا يجوز إحياؤها، وهذا المقصد الرئيس للكاتب في رسالته حققها له الشاعر في بيت واحد وبألفاظ جزلة لكنها عميقة المعاني.

البيت الثاني هو ردّ الكاتب على المخاطَب في حال عدم قبول المصالحة وتوحيد البلاد؛ ويعني الحرب. بدأ بلفظ تطمعوا مع وجود النفي، وهو لفظ مستعمل يدل على الأخذ بأكثر مما يستحق، وفيه تقريع للمخاطَب واتهامه أنه استولى على السلطة وهي ليست من حقه، وفي الشطر الثاني استعمل لفظ الأذى وقد يحمل على المجاز المرسَل علاقته اعتبار ما سيكون، إذ الاكتفاء بالنتيجة الحتمية للحرب، وقد يكون معنويًا وماديًا يشمل القتال. لقد برع الكاتب في تصدير رسالته بهذين البيتين؛ لما تركاه من تأثير في المتلقي، وقدرة على تحريك الانفعالات العاطفية بألفاظهما السهلة الجزلة وقيمتهما الجمالية، والكاتب استعمل الشعر في عشرة مواضع من رسالته.

ورغم أن طابع الجزالة والوضوح في الألفاظ والمفردات قد شمل معظم رسائل المدوَّنة، فإن بعض نصوص الفترة المتأخرة اتسمت بصعوبة الألفاظ وغريبها، ومن أمثلة ذلك نص من رسالة[٣٧] سياسية ينتقد فيه الإمام محمد بن أبي غسان[٣٨] (ق٦هـ) خصومه غير مبايعين له بالإمامة وتجييشهم عوام الناس للحرب، قال: «رجعوا بمن تبعهم من الطغام[٣٩] مستكثرين بأوباش[٤٠] وعوام، قد أجبروهم على اتباعهم وأوعدوهم العقوبة على تخلفهم عنهم وامتناعهم، ليس منهم متسمى بصلاح يتنمسون[٤١] به العامة وأهل الطلاح، حتى

إذا وصلوا البلاد وقد نالوا بزعمهم المراد، وأقبلوا على المستورين وأهل العفاف وسائر الرعية والضعاف، يستذلونهم بالمصادرات جبرًا، ويتشنقصون[٤٢] عليهم بالكسرات جبرًا لهم وقسًرا؛ لينفقوا زعموا على العساكر، ويقفوا على ما عليه من المناكر»[٤٣].

ولعل طبيعة الموضوع كونه يتعلق بالصراع على السلطة، وكذلك البيئة المحيطة المليئة بالصراعات السياسية والعسكرية والفكرية هي المؤثر الرئيس في نفسية الكاتب لجعل النص أول الأسلحة في مهاجمة الخصم، فبناه بنفس طريقة بناء الخطابة الردعية؛ بقصد استغلال قوة القول سلطة توازي قوة الفعل، فاختار له بعض الألفاظ المتصفة بالخشونة الثقيلة على السمع، ونظمها في سبكٍ فيه من الغلظة حوَّلت النص من دعوة لمبايعة الإمام؛ إلى وثيقة تهديد ووعيد تحشر الخصم في زاوية من التهم، طالت عِلْيَةَ القوم وأتباعهم الذين وصفهم بالطغام والأوباش من الناس، وهي فئة غير قابلة للحوار من وجهة نظر الكاتب.

الإيجاز والإطناب:

يختار المبدع للتعبير عما في نفسه طريقًا من ثلاث؛ فهو تارة (يوجز)، «وحدُّ الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه»[٤٤]، أي جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح. وتارة (يُسهب) أو ما يعرف بـالإطناب، «وحدُّه زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»[٤٥]، أي لغرض بلاغي، والإطناب غير التّطويل، إذ التَّطويل زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة. وتارة يأتي بالعبارة (بين بين) أو ما يعرف بالمساواة، وهو أن تكون الألفاظ بقدر المعاني[٤٦]. وكتَّاب مدوّنتنا لم يكونوا على مستوى واحد في الإيجاز والإطناب، إذ تختلف النصوص باختلاف الكتَّاب أنفسهم، وكذلك موضوع الرسالة وغرضها، والبيئة التي كتبت فيها، ولكن الذي يجمعهم أن طريقة الإيجاز والإطناب في نصوصهم لم تكن غاية في حدِّ ذاتها؛ وإنما ترد لمقتضى الحال في خدمة المعاني، فَرُبَّ لفظٍ قليل يدل على معنى كثير، ورُبَّ لفظٍ كثير يدل على معنى قليل بقصد توضيح الفكرة المطروحة وتأكيدها.

ومن النصوص التي ظهرت فيها سمة الإيجاز في موضع والإطناب في آخر، رسالة الشيخ منير بن النيِّر الجعلانيّ إلى الإمام غسَّان بن عبد الله (١٩٢ ـ ٢٠٧هـ) يحثه على تفعيل فريضة الجهاد لحماية استقلال البلاد، ويقترح عليه إنشاء قوة بحرية لهذا الغرض، ولتأمين التجارة البحرية التي تربط عُمان بأعالي البحار والخليج من القراصنة.

فقد أطنب الكاتب في مقدمته[٤٧] وجعلها في ست عشرة صفحة من أصل عشرين، تحدث فيها عن مفهوم الجهاد في الإسلام وأهميَّته في الذود عن الدين والأرض والعرض وحماية مصالح المسلمين، وعن فهم السَّلف للجهاد وكيف أنهم كانوا يتسابقون فيه حسب مشروعيته، وكان يستشهد بالوقائع في مراحل مختلفة، وما تطلبه كل مرحلة حسب الزمان والمكان وحال المجتمع، وكل ذلك بقصد التوطئة لبسط مفهوم الجهاد؛ لأن العُمانيين كانوا حينها في مرحلة التأليف للعلوم الشرعية وتقعيدها، وفي الوقت نفسه لاستمالة المخاطَب والتأثير عليه لقبول المقترح.

وعند عرضه لغرض الرسالة أوجز الكاتب الموضوع وجعله في بضعة أسطر؛ وهذا لمقتضى الحال، إذ أن مسؤولية الشيخ تقديم المقترح ولا يحتاج إلى بسط، أما دراسته وتخطيطه وتنفيذه فمن مسؤولية الإمام وحكومته، وهذا ما تم بالفعل، إذ أنشأ الإمام غسان قوة بحرية سيطرت على المنطقة البحرية من الهند إلى البصرة، وأخذت تتوسع حتى بلغت ذروتها أيام الإمام الصلت حين وجَّه حملة بحرية عام ٢٥٣هـ قوامها أكثر من مائة سفينة لاسترجاع جزيرة سقطرى. ومن مواضع الإيجاز في الرسالة عند تحذيره الإمام من البطانة الفاسدة، قال: «وإياك أن تكثر بمن يشين ولا يزين، ويفسد ولا يصلح فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين»[٤٨]. إن استعمال الكاتب للإطناب في موضع والإيجاز في آخر لا يرمي إلى تحقيق غايات بلاغية فحسب، بل يهدف إلى بسط المعاني وتوضيحها في حال الإطناب، وفي استغلال التكافؤ الثقافي بينه وبين المخاطَب في حال الإيجاز. إن دراستنا للإيجاز والإطناب قياسًا على مجمل الرسالة في طرح أغراضها وليس للألفاظ في داخل النص الواحد، فالكاتب قد يطنب في النص القصير، مثل: وإياك أن تكثر بمن يشين ولا يزين، ويفسد ولا يصلح»، إذ أن لا يزين ولا يصلح تكرار الجمل المترادفة، وهذا يعدُّ من الإطناب.

ومن مواضع الإيجاز والإطناب في الرسالة نفسها، عهد الإمام الصلت بن مالك (ق٣هـ) إلى والِيهِ حين عيَّنه على الرستاق، وقد اشتمل على توجيهات دينية وسياسية واجتماعية وقضائية وأخلاقية صاغها الكاتب جميعها في إيجاز مقصود، وهذا يُبيِّن المثاقفة المتبادلة بين ولاة الأمر، وثقة الإمام في قدرة الوالي على إدارة هذه الأمور؛

ولذلك قدمها في صورة موجزة. ومن أمثلة ذلك توجيهاته في أمور القضاء الذي يُعَدُّ من أهم إدارات المجتمع، قال: «ولا تحكم بين الناس في القصاص، ولا في الأرش[٤٩] ولا في

الأموال ولا في نكاح ولا في طلاق ولا في عتاق، حتى ترجع ذلك إليَّ، وكلما اشتبه عليك شيء من الحكم فيما بين الناس، فقف ولا تقدم عليه حتى تشاورني، فأنظر فيه أنا ومن معي من أهل الرأي». وينطبق أيضًا على هذا النص ما قلناه في الفقرة السابقة، إذ كان بوسع الكاتب أن يقول: «ولا تحكم بين الناس في جراحات ولا أموال ولا نكاح ولا طلاق ولا عتاق».

وعند الحديث عن الأمور الاقتصادية التي شملت الزكاة والأمور التجارية والمالية، استعمل الكاتب أسلوب الإطناب بقصد بسط الموضوع وفصَّله في أربع صفحات من أصل عشر، وهذا دليل على أهميَّته، إذ وجَّه الإمام إلى كيفية أخذ الزكاة من الأنعام والثمار وإدارتها وصرفها، وكذلك المعاملات التجارية والمالية، وأخذ الجزية من أهل الذمّة بحقها. إن إطناب الكاتب في هذا الموضوع وبسطه دليل على أن عُمان كانت تعيش مرحلة اقتصادية متقدمة، وأن المدن الرئيسة كانت تعمل مراكز مالية وتجارية بالغة الأهمية. ففي توجيهاته حول التعامل المالي مع المواطنين من أهل الكتاب، قال: «واعلم أن أهل الذِّمَّةِ[٥٠] تؤخذ منهم الجزية عند انسلاخ الشهر، ويؤخذ من الدَّهاقين[٥١] والمَلوك[٥٢] من كل واحد أربعة دراهم كل شهر، ويؤخذ من سائرتهم وأهل السعة من كل واحد درهمان كل شهر، وليس على الصبيان والشيخ الفاني ولا على الفقراء ولا على الزمناء[٥٣] ولا على النساء ولا على العبيد، ولا على الإماء شيء».

تؤثر البيئة المحيطة على الكاتب فيما إذا كان الموضوع يحتاج إلى بسط أو إيجاز، ففي البيان السياسي الذي أصدره الإمام راشد بن سعيد اليحمدي ومجموعة من العلماء عام ٤٤٣هـ ودعا فيه إلى ترك الخلاف والتوقف عن مسألة الولاية والبراءة في قضية خلع الإمام الصلت بن مالك عام ٢٧٢هـ إذ وجَّه الإمام خطابه إلى العلماء وأهل الرأي وقادة المجتمع، فاستغل التكافؤ الثقافيَّ الدينيَّ والسياسيَّ فيما بينهم، فاكتفى باستعمال أسلوب الإشارة والتلميح وصِيَغ العموم (من) و (ما)، فجاء الخطاب موجزًا في بضعة أسطر وهو يعالج قضية شغلت المجتمع العُمانيَّ وفرَّقته قرونًا طويلة،

فقال بعد أن تحدث عن الاتجاهات التي سارت عليها المدرسة الرستاقية التي ينتمي إليها: «واجتمع رأيهم؛ أي العلماء،على الدينونة بالسؤال فيما يجب عليهم السؤال فيه عند أهل الحق الذين يرون السؤال واجبًا، واجتمع رأيهم على أن من دان بالشك فهو هالك، وكذلك اتفقوا على أن من علم من محدثٍ حدثًا وجهل الحكم في حدثه أن عليه

السؤال فيه، وإن علم الحدث والحكم كان عليه البراءة منه إذا كان حدثه ذلك مما يجب به البراءة من فاعله».

تتطلب رسائل الردود أن يُبْسَطَ في الموضوع أحيانًا، وذلك بقصد مناقشة القضايا المطروحة، ثم التعليق عليها، ولهذا تتسم بالإطناب، وهي سمة تتيح للكاتب أن يظهر مهاراته الفنِّيَّة وثروته الفكرية والثقافية فيكثر من عرض الموضوع. ومن أمثلة ذلك في مدوَّنتنا رسالة الإمام محمد بن أبي غسان (ق٦هـ) ردًا على من اعترض على حربه على أهل حيِّ العقر بنزوى. رسالة النقد وجِّهت إلى الإمام وحكومته من الشيخ أحمد بن محمد بن صالح القري على أعمالٍ ارتكبت في أثناء القتال، ربطها الكاتب بنصوص من فقه الإباضية تشير إلى أنه لا يجوز حدوثها بين المسلمين في حروبهم، فجاء الرد مطوَّلًا في ٤٠ صفحة، فيه من ضروب التأكيد قصدًا للمبالغة، واستشهد الكاتب بآيات قرآنية في ثلاثة وعشرين موضعًا، إضافة إلى أحاديث نبوية، وتضمين أمثال وحكم وأقوال من آثار السلف.

يقول في رده على المحتوى العام لرسالة النقد: «أما بعد فإنا قد وقفنا على كلامٍ قد ألف، ومقال قد لفق وزخرف، موسومًا بالنصيحة في إعريض الأعراض[٥٤]، مرقومًا بعنوان البِّر دالًا على الاعتراض، فلحظنا بعين النصح ألفاظه ومعانيه، وكررنا تصفحه وتأمل ما فيه، فألفيناه خارجًا عن مقصد النصائح، ووجدناه مخالفًا للآثار الصحائح، متناقضًا في ازدواج معانيه، متنافيًا في وضع مبانيه. يدل على أنه صدر عن جهل بدقائق الأحكام وقلة علم بسيرة الحكَّام، واندفع عن عجلة فكر جاف، وخرج من قلبٍ كدر وضمير غير صاف»[٥٥]. لقد أراد الكاتب أن يبيِّن أن غاية رسالة النقد خارجة عن النصح المألوف في مثل هذه المواقف، وقد ساق لذلك معاني مكررة بألفاظ مختلفة.

وكان الشيخ القري اعترض على هذه الحرب وأوجز في وصفها قائلًا: «وقد اتصلت بنا عنكم أخبار موحشة مستعظمة وأحداث منكرة محرمة مما تجري بنزوى على أيديكم من الحرب المتواصلة والمحن النازلة والخُطوب[٥٦] الهائلة». لقد جمع الكاتب كل مكدِّرات الحرب في هذه الألفاظ القلية، فأخبارها المنتشرة توحش النفوس وعظيمة في وقعها؛ لأنها تقع بين أبناء المجتمع المسلم الواحد وفي عقر داره، وذكر أحداثها أنها تنكرها العقول السليمة، وهي محرمة شرعًا، ووصفها أنها متواصلة؛ أصاب دمارها العباد والبلاد، وأنها عظيمة الأمر والشأن.

اتسم رد الإمام على هذه المعاني بالإطناب، وبسط الكاتب رده في صفحتين، استقصى فيها شرح تلك الأحداث، وساق الكثير من البراهين والحجج لدرجة المبالغة لتبرئة الإمام ومعاونيه من بدء شن الحرب وأحداثها اللاحقة. يقول في أحد ردوده: «وأما قوله، وقد اتصلت بنا عنكم أخبار موحشة مستفظعة[٥٧] وأحداث منكرة محرمة، فلا نعلم حقيقة من أراد بهذا المقال، ومن قصد بهذه التخطئة وهذا الضلال. وليس لنا أن نحكم بالغيب، ولا يحل لنا ولوج الشبهة والريب، لكنّا نقول على الشرط أنه إن كان أرادنا بذلك وقصدنا وعنانا بمقاله هذا واعتمدنا، أنه قد عجَّل علينا بالتخطئة بغير بيان، وسارع إلى تكفيرنا بلا صحة ولا برهان، وكان الواجب عليه والأولى به، والأليق بدينه ومذهبه، أن يتثبَّت لنفسه قبل القطع بلا قياس، ويتبيَّن أمره قبل البناء بلا أساس».

ولقد أتاح هذا الأسلوب للكاتب اتساع المجال لبسط المعاني، وشمل الإطناب معظم الجمل في النص، ولم يكتفِ بما أورده من حجج وبراهين؛ بل استشهد بأقوال أحد السَّلف لخدمة السياق وتوسعة المعاني، فقال: «وقال الشيخ أبو محمد[٥٨]: من أقدم على معايب الرجال قبل أن يعرف معاذيرها، وتَقَحَّمَ الموارد قبل أن يعد مصادرها، ندم حيث لا تنفعه الندامة، وهرب حيث لا تُرجى السلامة، وحصل في ضيق المسالك، ودخول المهالك، وتورط في المشكلات، وتهوَر في المهلكات، ووقع في الشبهات».

وعند رده على النقد الموجَّه للإمام وحروبه المتواصلة أطنب الكاتب في بسط المعاني للتوكيد، وربط ذلك بالواجب الديني بقصد التأثير في المتلقي، قال: «وأما قوله عن الحروب المتواصلة، فليس في تواصل الحروب دليل على تحريمها إذا كانت جائزة في الأصل. وما في تواترها شاهد على راكبها بالهلاك إذا أسست على العدل، بل ذلك هو الواجب في الدين والمعنى الذي يرجى به الظفر بالمفسدين حتى يفيئوا إلى أمر الله أو يَهْلَكوا أو يظفر بهم المسلمون فيملكوا. فإنَّ من كان له دين حارب عليه وشمر، ومن تصدى للقيام بأمر الله جاهد عليه وصبر».

ويستشهد الكاتب بأبيات للإمام الحضرمي[٥٩]. (الطويل):[٦٠]

ومَا يُنْزِلُ النَّخَواتِ إلّا فظَاظَـةٌ ... وغِلْظَةُ لَيْثٍ مثلُ جُلمودِ صَخْرَةِ

ولا يقهرُ الطُّغيانَ بعدَ طِماحِهِ ... سِوى وَقْعَاتٍ وَقْعَةٍ بعدَ وَقْعَـةِ

بِيُومٍ وأيامٍ وشَهْـرٍ وَأشْهُـــرٍ ... وحَوْلٍ وَأحْـوالٍ وجَيْشٍ وَغَزْوَةِ

تنسب هذه الرسالة في كتابتها إلى الشيخ أحمد بن عبد الله الكندي صاحب كتاب المصنف، وهو تلميذ الشيخ القري صاحب رسالة نقد حرب حيّ العقر؛ ولهذا أرادها الكاتب أن تعلو من مجرد رسالة رد وظيفتها توصيل الأفكار، إلى نصٍ إبداعيٍّ يؤثر في متلقيه بخصائص صياغته ونمطه الفنِّيِّ، وبما ضمَّنه من اقتباسات واختيارات من المصادر الدينية والتاريخية والفكرية والثقافية والأدبية، واستطاع تحويل الإطناب من مجرد أسلوب من أساليب الكتابة إلى مجال رحب لبسط المعاني وتأكيد الحجج، وأضفى على النص خاصة جمالية لما تضمَّنه من تعالق مع مصادر ونصوص أخرى.

السجع:

للسجع دورٌ مهمٌّ في إعطاء النص جرسًا موسيقيًا جميلًا، يأنس بقيثارته المتلقي انسجامًا متداعيًا محفوفًا برغائب الاستمرار، وتلك سمة زخرفية لفظية «حدَّه: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد»[٦١]. وهو محمود إلّا من تَكَلُّف، وأفضله ما تساوت فقره، ولا يحسن إلّا إذا كان رصين التركيب، خاليًا من التكرار في غير فائدة.

وقد استعمل كتَّاب مدوَّنتنا السجع في نصوصهم لكنهم لم يسرفوا فيه، ولم يكن استعمالهم له بقصد تحبير كتاباتهم وتنميقها؛ بل جاء فطريًا وعفويَّ الخاطر موافقًا لمقتضى الحال بعيدًا عن التَّصنُّع والتَّكلُّف، فكان مسلكًا موَطِّأً لمرغوب الكاتب من جهة، مراعيًا فيه لفت خاطر المتلقي من جهة أخرى. وهذه نماذج من نصوص المدوَّنة.

يستعمل السجع في صدور الرسائل لشد انتباه المخاطَب، إذ يُكَثَّف التعبير بجمل مسجَّعة لبيان أهمية الموضوع، وتوضيح مقصد المرسِل وغرضه. ومن أمثلة ذلك رسالة الشيخ هاشم بن غيلان وأهل إزكي إلى الإمام عبد الملك بن حميد (٢٠٧ ـ ٢٢٦هـ) ينصحونه بصفته إمام المسلمين أن يعدَّ الأمة للجهاد قبل اتخاذ قرار الحرب، فأراد الكاتب في المقدمة أن يُبَيِّنَ أهمية المنصب وقرارته، فصاغ ذلك في جمل مسجوعة، فقال: «نوصيك بتقوى الله وطاعته، والقيام لله بسبيل ما جعلك لسبيله من دينه، المطوَّقة حقوقه التي أوجبها بميثاق وتؤكد، وأحْسِنَ رعاية ذلك بالجهد، واعمل فيه بالتشمير والجد، فإنها نعمةٌ من الله أصبغها عليك، وهديَّةٌ كريمةٌ صرفها إليك»[٦٢]. بعد ذلك صاغ الكاتب رسالته بالنثر المرسَل، إذ أدَّى السجع وظيفته في صدر الرسالة ولم تعد حاجة للتصنيع اللفظي؛ لأن الكاتب استغل التكافؤ الثقافي بينه وبين المخاطَب في عرض الموضوع والخاتمة.

ومن أمثلة ذلك أيضًا رسالة الشيخ موسى بن علي بن عزرة إلى الإمام عبد الملك بن

حميد ينصحه فيها باختيار ولاة الأمر، صدَّرها بمقدمة طويلة صاغها بجمل مسجوعة بدأها بالحث على القيام بأمر الإمامة، فقال: «أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته، والاجتهاد لله في إقامة ما ابتلاك بإقامته، وحفظ ما استحفظك من أمانته». وعندما أراد أن يوضح له هذه المعاني، قال: «ولستَ على شيء حتى تقيم كل شيء مقامه، وتبلغ من كل أمر تمامه، وتأخذ منه بالمعرفة واليقين، وتكون منه على الحق المبين، الذي لا ترى فيه شكاً، ولا تخاف على نفسك هلكاً...». ولما أراد أن يذكِّر بسيرة السلف تحدث عنهم من منظور الناس إليهم، ولم يشأ ذكر أعمالهم، فقال: «لهم في النّاس أمانة، وللقلوب بهم طمأنينة، ولا تحسن القلوب تهمتهم، ولا تنكر معرفتهم، ولا تتحرج لهم الصدور، ولا تُسْتَنْكَر منهم الأمور».

وفي تخلّصه من المقدمة صاغ أسلوبه في جمل دعائية مسجوعة، فقال: «أما بعد: فعافاك الله أيها الإمام من كل بلاء، ووقاك كل سوء في الآخرة والأولى، وفعل لنا مثل ذلك إنه فعَّالٌ لما يشاء»[٦٣]. ثم استغنى الكاتب عن السجع في كل الرسالة.

لقد وظَّف الكاتب الجمل السجعية في مقدمته لإنتاج الدلالة ولخدمة خطة الرسالة، فتحوَّل السجع في مجمله إلى شكل من أشكال المعاني، وجمع فيه بين ملاءمة قدر المخاطَب وطبيعة غرض الرسالة بقصد استمالة المتلقي وحمله لتقبل مضامين الرسالة.

وقد حاول الكاتب أن تكون أجزاء الجمل متعادلة، وتكون الفواصل على حرف واحد، وألّا تزيد جمل الفاصلة الواحدة عن ثلاث، وهذا ما أشاد به العسكري: «فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد أو ثلاث أو أربع لا يتجاوز ذلك»[٦٤]. كذلك لم تكن الجمل على قدر واحد من حيث الطول، بل يحكمها السياق، فأبعدها ذلك عن التكلف، وتحقَّق تغيُّر التنغيم الموسيقي والإيقاع الصوتي للنص.

ومن أساليب استعمال السجع في مدونتنا توظيفه لربط صدر الرسالة بخاتمتها، ففي عهد الإمام راشد بن سعيد الخروصي (ق٥هـ) إلى وَالِيه على صحار، استعمل السجع في صدر الرسالة وخاتمتها دون متنها، وهذا يدل على أن مقاصد الكاتب وغرض الرسالة ودلالات المعاني هي التي تفرض أسلوب الكتابة وليس التَّصنُّع، إذ صاغ الكاتب في صدر الرسالة الإطار العام لعمل الوالي في جمل قصيرة مسجوعة، فقال: «واذكر حق الله عليك، واشكر نعمته لديك، ولا تذهب بك حمية، ولا تمنعك تقية، أن تساوي في الحق بين وضيع الناس وشريفهم، وقويهم وضعيفهم، وبغيضهم وحبيبهم، وقريبهم وبعيدهم». وفي ختام

الرسالة ربط تنفيذ هذا العمل بالتعاون بين مؤسسات الدولة في المنطقة، فقال: «وحجرتُ عليك وعليهم؛ أي العاملين بالمؤسسات، خذلان بعضكم لبعض فيما يجب عليكم من المعاضدة، والمعاونة والمساعدة، وفيما يعود بطاعة ربِّ العالمين، وبإعزاز دولة المسلمين، وكسر شوكة المعتدين».

إن استعمال الكاتب للجمل المسجوعة في مقدمة الرسالة وخاتمتها حافظ على سلامة النص وجعل له جرسًا موسيقيًا يترك أثره في المتلقي، وإذا ربطنا التوجيه الأول في صدر الرسالة بالمطلب الأخير في خاتمتها فإنها تمثل خلاصة غرض الكاتب، وما بينهما تفاصيل تساعد الوالي في التنفيذ، وهنا تظهر قيمة السجع وبلاغته عندما يوظَّف لخدمة المعاني وغرض الرسالة. كذلك اختيار الكاتب للجمل القصيرة في المقدمة خاصة وتنوّع فواصلها ساعد على توليد الجانب الإيقاعي.

يستعمل السجع في رسائل التهديد رديفًا لموروث الخطابة الردعية. ومن أمثلة ذلك في مدوَّنتنا رسالة الإمام محمد بن مالك بن شاذان (ق٦هـ) إلى منافسه على الإمامة سعيد بن راشد بن علي، إذ استعمل الكاتب السجع في مجمل الرسالة، يقول في المقدمة: «إلى الخائض بجهله غمرات مغواه، المهلك في مهلكة رداه، المتمادي في غيِّه وهواه، البائع سلامة دينه بفصيحة دنياه». إلى أن قال في بداية متنها: « أما بعد فما هذا التعامي عن الحق وهو واضح، وما هذا التمادي في الباطل وهو فاضح، وإلى متى التحسن بالكذب وهو قبيح، وحتام تلبيس الحق بالباطل وهو صريح، وما الذي جرأكم على استعمال الكذب والبهتان، وأي شيء حملكم على الانهماك في الإثم والطغيان، فأنساكم ذكر الله وصيَّركم حزب الشيطان»[٦٥]. ويستمر الكاتب بين النثر المرسَل والعودة إلى السجع.

إن استعمال الكاتب للجمل المسجوعة في هذا النص لا يرمي إلى إمتاع القارئ، بل يرمي إلى تقوية التهديد بالجرس الذي تحدثه المحسَّنات البديعية، سواء كان في داخل الجملة أم في فواصلها، واختيار الجمل الطويلة وافق السياق، فظهرت محسنات غير السجع في داخل الجملة نفسها، مثل الطِّباق بين الحق والباطل. لقد برع الكاتب في اختياره أسلوب السجع لإيصال غرضه، إذ أجبر القارئ على التنقل بين الحقول اللغوية الزَّاجرة، مع وجود أسلوب التدرج في النقد والغلظة في الاتهام.

الرسائل العسكرية أكثر استعمالًا للبديع، والسجع خاصَّة، فرسالة الإمام محمد بن أبي غسان (ق٦هـ) ردًا على من اعترض عليه على محاربته أهل العقر بنزوى، كان السجع

أحد مقومات بنائها الفَنِّيِّ.

والرسالة تنسب إلى العلامة أحمد بن عبد الله الكندي في كتابتها، إذ استطاع الكاتب ببراعته الفنِّيَّة تحويل الإيقاعات الموسيقية التي تحدثها الجمل المسجعة التي عادة تطرب النفس؛ إلى إيقاعات تأثيرية ترهب النفس وتثبِّت الحجج، واعتمد هذا الأسلوب عنصرًا أساسا في جميع مراحل الرسالة، وكان يُنوِّع في طول الجمل وقصرها والفاصلة المستعملة حسب أهميَّة الحدث. ففي رده على شكل رسالة النقد، قال: «أما بعد فإنا قد وقفنا على كلامٍ قد ألف، ومقال قد لفق[٦٦] وزخرف، موسوم بالنصيحة في إعريض الأعراض، مرقوم بعنوان البِّر دالٍّ على الاعتراض». إذن رسالة النقد تُعَدُّ أكاذيب مزخرفة، وتخوض في أعراض المخاطَبين، ورغم أن عنوانها البِّر لكن غرضها الاعتراض فقط.

إن هذا التعبير ما كان سينتقص كثيرًا من رسالة النقد لو لم يصيغه الكاتب في هذه الجمل المسجوعة ذات الدلالة الواضحة التي تجعل المتلقي يعيد القراءة لتحديد ملامح المقام.

وعند الحديث عن مشروعية قتال أهل حيٍّ العقر، قال: «وأما قوله، قطع الثمار، فما قطعنا ثمرًا ولا كثرًا، ولا قطعنا زرعًا ولا شجرًا، ولا نعلم أحدًا فعل ذلك ممن خرَّجناه للقتال، وبعثناه لحرب هؤلاء الرجال. إلى أن قال: «ولما أن كانت الحجة قد قامت على هؤلاء القوم وظهرت فيهم، وبلغتهم الدعوة وشهرت إليهم، كان حربهم جائزًا كل حين، ما لم يرجعوا عن بغيهم المبين، وجائز قتلهم مقبلين ومدبرين». إن هذا السجع القائم على التَّنوع في الفواصل وأطوال الجمل، والبعيد عن التكلف حقق للكاتب مقاصده، فمن ناحية حافظ على أسلوب الكتابة الفنِّيَّة لرسالته، وهي من أهم مقومات التَّرَسُّل، ومن ناحية أخرى ساعد على إحداث الجرس الصوتيَّ الذي يجعل المتلقي أكثر قربًا من الرسالة، وأكثر تأثرًا بغرضها وما تهدف إليه، سواء كان القارئ الحقيقيّ أم الضمنيّ.

وعند نفيه اتهامهم بتحريق البيوت، قال: «وأما قوله، تحريق المنازل بالنار، فذلك شيء ما فعلناه، ولا أمرنا بفعله ولا رضيناه، والفاعل لذلك أحق بذمه، وأولى بضمانه وإثمه»[٦٧].

وحول توضيح قضية التَّبييت، أي مباغتة العدو ليلًا دون إنذار، وكذلك الاغتيالات، قال: «وأما قوله، إتلاف الأنفس من عبيد وأحرار، فمن بغى على السلمين وحاربهم، وامتنع عن طاعتهم وناصبهم، جاز لهم جهاده وقتاله، وإذا قامت عليه الحجة فردَّها حلَّ لهم بياته واغتياله، وهذا شيء فعله الأئمة والأفضلون، اقتداء بما سنَّه الأنبياء الأولون»[٦٨].

إن اتباع هذا الأسلوب من قبل الكاتب ساعد على إثراء الإمكانيات التواصلية بين النص

ومتلقيه، وحوله من نصٍّ مكتوبٍ إلى نصٍّ ينطق حيوية وجمالًا بغض النظر عن القضايا التي يناقشها.

الجناس:

يُسهم الجناس في تشكيل الإيقاع والانسجام الصوتي الذي ينبع من التوافق الموسيقي بين الكلمات، «وحقيقته أن يكون اللفظ واحدًا والمعنى مختلفًا»[٦٩]. ويُقْبَلُ الجناس في الكلام إذا كانت الصَّنعة فيه توافق الطَّبع، ويكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وهو نوعان: جناس تام إذا اتفق فيه اللّفظان في نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها، وجناس ناقص إذا اختلف فيه اللفظان في واحد من هذه الأمور.

والجناس لا يخلو من التَّكلُّف؛ فلذلك كان كتَّاب مدوَّنتنا مقلين فيه ولم نقف على جناس تام في نصوصهم إلَّا نادرًا. قال عنه عبد القاهر الجرجاني: «أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً...» وبعد أن ساق أمثلة، قال: «.. فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن؛ ولذلك ذُمّ الاستكثار منه والولوع به»[٧٠].

وتتفاوت مقادير صور الجناس في رسائل مدوّنتنا، ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة هاشم بن غيلاني وأهل إزكي إلى الإمام عبد الملك بن حميد (ق٣هـ) ينصحونه بإقامة الجهاد بعد أن يتم الإصلاح، قال: «وأحسن رعاية ذلك بالجهد، واعمل فيه بالتشمير والجد (..) ولكل من ذلك أهل معروفون، وناس موْصوفون»[٧١]. لقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين لفظي: الجهد والجد. فالجهد قصد به بذل الطاقة لإنجاز العمل، والجد بمعنى العزيمة على الإنجاز. وكذلك جانس جناساً ناقصاً بين لفظي: معروفون وموْصوفون. فمعروفون قصد بها العلماء المشهورين في مجتمعهم؛ فهم أعلام الأمة ورموزها، وموصوفين بعلمهم وصلاحهم وزهدهم وقد أخذوا على عاتقهم إصلاح المجتمع.

ورغم أن التجانس جاء في أماكن متفرقة وهو جناسٌ ناقصٌ، إلّا أن كل متجانس وصاحبه قد ائتلفا لفظًا وتقاربا معنًى، فكوَّنا انسجامًا وتآلفًا صوتيًا على الكلمات، وأثريا المعاني، وأشاعا في النص جرسًا موسيقيًا يثير العواطف ويستميل المتلقي.

وفي رسالة الإمام محمد بن أبي غسان (ق٦هـ) جانس الكاتب في نصه الذي ينتقد فيه الخصم، فقال: «وحصل في ضيق المَسَالِك ودخول المَهالِك، وتورط في المُشْكِلَات وتهور

في المُهْلِكَات ووقع في الشُّبُهَات». فجانس جناسًا ناقصًا بين لفظي: المسالك والمهالك. فالمسالك مأخوذة من السُّلُوك وهو مصدر سَلَكَ طريقًا وسَلَكَ المكان دخل فيه، فاستعاره الكاتب ليُعَبِّر به عن الطرق الضيقة ويقصد بها السبل المعنوية التي اتبعها، والمهالك استعارة أيضًا من المفازة؛ أي الصَّحراء، ويقصد موضع الهلاك نفسه. وجانس جناسًا ناقصًا بين: المشكلات والمهلكات والشبهات. فالمشكلات يقصد بها الأمور الملتبسة لا وضوح فيها وصعب حلها، والمهلكات كل شيء تصير عاقبته إلى الهلاك، والشبهات يقصد بها الفتن تُشَبِّهُ مقبلة وتُبَيِّنُ مدبرة.

إن أساليب البديع ليس دائمًا تدخل على النفس الطرب، بل استعمالها هو الذي يحدد تأثيرها، فأحيانًا تدخل على النفس الرهب، فما استعمله الكاتب من جناسٍ في هذا النص يترك المتلقي في حيرة من أمره، وربما يؤثر عليه في إعادة حساباته من موقفه.

ورسالة[٧٢] الشيخ محمد بن أحمد بن صالح (ق٦هـ) التي نظَّر فيها مسؤوليات الإمامة والولاية، فقد صاغها في مجملها بأسلوب مسجع، وجانس في بعض فقراتها. ففي حديثه إلى المجتمع العُمانيّ بأن يسمو عن الصفات المذمومة، قال: «فإياكم صفة الرعاع، أن تكون عند الإجماع (..) صانكم الله من هذه الصِّفة القبيحة، ونجاكم وإيانا من الخزي يوم الفضيحة»[٧٣]. فقد جانس الكاتب جناسًا ناقصًا بين لفظي: الرعاع والإجماع. فالرعاع قصد منه سُقَّاط الناس وسَفِلَتُهم وغَوْغاءهم، والإجماع قصد منه إحْكام النِّية والعزيمة على الشيء، أجْمَعْت الرأي وأزْمَعْتُه وعزَمْت عليه. وجانس جناسًا ناقصًا بين لفظي: القبيحة والفضيحة. القُبْحُ ضد الحُسْنِ، والفعل قَبُحَ، وقصد به أن يحفظكم الله من الصفات الإنسانية غير الحسنة. والفضيحة قصد بها يوم القيامة، وهو استعارة، وأصل الفَضِيحة اسم لكل أمر سَيِّءٍ يَشْهَرُ صاحبَه بما يسوءُ. إن اشتراك أسلوب الجناس مع السجع مع وجود بعض الاستعارات أضفى على النص قيمًا جمالية تلفت انتباه المتلقي وتثير فيه الشعور بالتعالق مع النص والتأثر به.

الطباق:

الطِّباق من المحسّنات المعنوية، وتسمى المطابقة، «وهو الجمع بين الشيء وضده» [٧٤]، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما اسمين أو فعلين أو حرفين، والمطابقة تَحْسَنُ ما لم تَكْثُر، والطباق نوعان: طباق إيجاب، إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظًا ومعنًى. وطباق سلب إذا تحقَّق التَّضاد بوجود اللفظ ومنفيه من الكلام. وقد استعمل

كتّاب مدونتنا الطّباق في ميدان عنايتهم بالمعنى، واهتمامهم بالجمل التي تعبّر عنه، ولكنّهم كانوا ميالين إلى الاعتدال في توظيفه مثل باقي المحسّنات البديعية، إذ لم يكثروا منه إلا بالقدر الذي يخدم الأسلوب وهو ما جاء لمامًا لا باعتقاب مصنوع، وأكثر ما نجده في مطالع الرسائل. ومن أمثلة ذلك ما جاء في معرض توجيه الإمام الصلت بن مالك حملة عسكرية لاستعادة سقطرى عام ٢٥٦هـ فقال في صدر الرسالة وهو يمجِّد الله سبحانه وتعالى: «وأعز وأذل، وهدى وأضل، وآثر وأقل»[٧٥].

وقد اختار الكاتب معانٍ تعني مفرداتها نتائج المعارك العسكرية، فالعزَّة في الحرب هي النصر، وضدَّه الذُّل وهو الهزيمة. والهدى من أرشده الله للجهاد في سبيله للدفاع عن الدين أو الأرض أو العرض، وضدُّه الضلال، من وقف في وجه الدعوة أو حارب المسلمين على أرضهم أو انتهك عرضهم. وآثر، قدَّم وفضَّل، وآثره عليه فضَّله، وضدَّه القِلَّة خلاف الكثرة، وقلله وأقله جعله قليلًا، وهذا اللفظ يستعمل في نفي أصل الشيء. وجاءت المطابقة في هذا النص عفوية لمقتضى الحال، فزادت المعاني وضوحًا وقوة، وأضفت على النص شدوًا طروبًا به المتلقي فتبقي المعاني متألقة في ذهنه وجسرًا إلى غرض الرسالة الوارد في متنها.

وطابق الشيخ محمد بن الحواري (ق٣هـ) في صدر رسالته[٧٦] إلى أهل حضرموت وهو يوصيهم بالاعتدال في معاملة الرعية، فقال: «ولا يخرجنكم الغضب من الحق، ولا يدخلنكم الرضا في الباطل». فقد طابق الكاتب بين ثلاثة معانٍ وضدها في جملة واحدة: الخروج والدخول، والغضب والرضا، والحق والباطل، في سبكٍ متساوقٍ ومعانيَ الطَرْح اللاحق لاستقبال غرض الرسالة الذي يدور حول نظام الحكم وإدارة المجتمعات، وأعطى النص تنغيمًا لافتًا. يقول ابن الأثير: «إذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده تَوَفَّرت الدواعي على استماعه»[٧٧].

واستعمل الطباق القاضي محمد بن عيسى السّري[٧٨] في رسالته إلى الإمام راشد بن علي الخروصي (ق٥هـ) التي دعاه فيها إلى التوبة، إذ كان طباقه واضحاً في مجمل الرسالة، ومنه: «فإني راغب في مقاربتكم وموافقتكم وكاره لمباعدتكم ومفارقتكم، غير أنه لا يصح اجتماع إلا على طاعة الله وطاعة رسوله فإنه جعل في طاعته المحبة والاجتماع والألفة، وجعل في معصيته العداوة والبغضاء والفرقة»[٧٩]. إذ طابق الكاتب في الشطر الأول من الجملة في ثلاثة معانٍ وضدها: الرغبة والكره، والمقاربة والمباعدة، والموافقة والمفارقة.

وقد حدَّدت هذه المعاني غرض الرسالة، فالرسالة في أصلها ردٌّ على رسالة طَلَبٍ من الإمام ومعاونيه إلى الشيخ للانضمام إليهم، قال: «أما بعد، فإذا طلبتم مني الاجتماع والألفة ..»[٨٠]. فالشيخ لا يمانع من العودة إلى الحكومة فقد كان قاضيًا فيها، لكنه يضع عودته ضمن شروط.

في الشطر الثاني من الجملة طابق الكاتب بين ثلاثة معانٍ وضدها أيضًا: الطاعة والمعصية، والمحبة والعداوة، والألفة والفرقة. ولقد وظَّف الكاتب هذه الألفاظ في المطابقة لسبك المعاني لتحديد موقفه من الإمام وحكومته، فهي ليست صنعة في الكلام، بل أظهرت الخلاف بينهما والذي على أساسه افترقا، إذ اتهم الشيخ في متن الرسالة الإمام وحكومته بارتكاب أعمال في حق المجتمع عدَّها خارجة عن الشرع؛ أي طاعة الله، وداخلة ضمن المحرَّمات؛ أي المعاصي. فجاء هذا النظم مطابقًا لمقتضى الحال، وتمهيدًا لموقف الشيخ من الإمام وحكومته، إذ أعقبه مطالبتهم بقبول النّصيحة من قبل العلماء، والتوبة العلنية من تلك الأحداث، فقال: «وإن تقبلوا نصائح المسلمين العلماء، ولا تردّوا الحق على من جاءكم به بعيدًا كان أو قريبًا، بغيضًا كان أو حبيبًا، وأن تتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم وتتقوه عزّ وجل في سركم وجهركم»[٨١].

ولقد وظَّف الكاتب الطباق في هذا النص لبيان أهم المعاني في السياق، فهو يطالب المخاطَبين بقبول النُّصح من العلماء، لكن ليس علماء السُّلطة فقط؛ بل هم وغيرهم «بعيدًا كان أو قريبًا» والبعد والقرب هنا ليس مكانًا بل مكانة استعاره الكاتب ليعبِّر به عن المجالات التي تدار بها الحكومة واختلاف الآراء حولها. وكذلك طابق في موضوع توبة الإمام واشترطها أن تكون علانية «سركم وجهركم»، فطابق سرية التوبة وهذا بين العبد وربه، وبعلانيتها ليطَّلع الجمهور على ذلك.

خاتمة:

سعى كتَّاب السِّيَر (الرسائل) أن تكوِّن رسائلهم لونًا من ألوان النثر الفنِّيِّ الجميل، ورغم أن وظيفتها الأساسية هي وظيفة توصيلية، وهم ينتمون إلى فئة الأئمة والعلماء القياديين في مجتمعاتهم؛ لكنهم حرصوا أن تتوشح رسائلهم بقيم جمالية، كي لا يقتصر دورها على الإفهام أو الإخبار فحسب؛ وإنما يطلب منها أن تؤثر في قارئها؛ لذلك كانوا يسخِّرون مهاراتهم الفنِّيَّة وثرواتهم اللغوية والفكرية والثقافية في اختيار الألفاظ وحسن سبكها، وتركيب الجمل وصياغة المعاني والموازنة بينها بقصد توفير الإمتاع الفنِّيِّ في نفس

القارئ. ولم تكن رسائل المدوَّنة بنفس القدر من الإبداع الفنِّيَّ والتواصل الأدبي؛ ولهذا قسَّمنا المرحلة التاريخية إلى فترتين، وتوصلنا في دراستنا إلى أن رسائل الفترة الأولى أكثر إبداعًا، وأقرب انتماءً للأجناس الأدبية، فكانت تمثل نصوصًا حضارية في أشكال أدبية.

الهوامش والإحالات:

(١) السِّيَر. نمط من الكتابة بدأ في القرن الأول الهجري عند علماء الإباضية بالبصرة، ثم انتقل إلى عُمان في القرن الثاني، وتلك فترة يغلب عليها التوجه الدينيُّ والأسلوب الأدبيُّ، ثم تطوَّر ليشمل كل المجالات، وفي القرن العاشر اتخذت السِّيَر هيئة جديدة تعنى بتدوين التراجم والكتابة التاريخية. ولهذا اخترنا لهذ البحث الطَّور الذي بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين؛ لأنه طورٌ يمثل عصر "السِّيَر" بنهجها العُماني المتعارف عليه.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، شرح وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، ٢٠١٤م، ص٥١٩.

(٣) العسكري، الحسن بن عبد الله أبو هلال، كتاب الصناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص١٥٤.

(٤) ابن طباطبا، محمد بن أحمد، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص٨١.

(٥) منير بن النَّير الجعلاني، أحد حملة العلم من البصرة إلى عُمان في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، يعد أحد كبار العلماء من الرعيل الأول في عُمان، حضر بيعة الإمام الجلندى بن مسعود سنة ١٣١هـ انظر: السالمي، عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، ط٢، ١٣٥٠هـ ج١، ص٢٦١. والبطاشي، سيف بن حمود، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان، مسقط، ط٢، ٢٠٠٤م، ج١، الصفحات: ص٢٢٥ ص٢٣١. وصالح، محمد ناصر، وسلطان بن مبارك الشيباني، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٥٦.

(٦) غسان بن عبد الله الفجحي اليحمدي (ت٢٠٧هـ)، فقيه بويع بالإمامة سنة ١٩٢هـ أنشأ أسطولًا بحريًا استطاع به تأمين البحر من القراصنة، تمكن من إخماد المعارضة الداخلية، شهدت عُمان في عهده تطورًا وازدهارًا في العلوم والزراعة، سميت نزوى في زمانه بيضة الإسلام لانتشار العلم والعلماء فيها. انظر: تحفة الأعيان، ج١، ص١٢٢. ومعجم أعلام

الإباضية، ص٣٤١. والسعدي، فهد بن علي، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، ط١، ٢٠٠٧م، ج٤ و٥، ص٤ ص٥.

(٧) السِّير والجوابات لعلماء وأئمة عُمان، تح: سيدة إسماعيل كاشف، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ج١، ط٢، ١٩٨٩م، ص٢٢٩.

(٨) إتحاف الأعيان، ج٢، ص٢٣.

(٩) ابن طباطبا، محمد بن أحمد، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص١٣.

(١٠) تحفة الأعيان، ج١، ص٨٧.

(١١) هاشم بن غيلان السيجاني، (حي في ٢٠٧هـ)، فقيه من كبار العلماء، نشأ في بلدة سيجا من أعمال سمائل، وتشير بعض المراجع أنه أحد الخمسة الذين حملوا العلم من البصرة إلى عُمان. انظر: تحفة الأعيان ج١، ص١٣٧. إتحاف الأعيان، ج١، ص٢٣٢، معجم أعلام الإباضية، ص٤٨٦.

(١٢) عبد الملك بن حميد العلوي، من بني سودة، بويع بالإمامة سنة ٢٠٨هـ وقيل ٢٠٧هـ كان حسن السيرة، مقيمًا بالعدل حتى كبر وضعف وثقل منه السمع والبصر، لكنه لم يعزل وبقي إماماً حتى توفي سنة ٢٢٦هـ انظر: ابن رزيق، حميد بن محمد، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، وزارة التراث والثقافة، مسقط، د.ط، ١٩٧٨م، ص٣٨. وتحفة الأعيان، ج١، الصفحات: ص١٣٤ ص١٤٩. ومعجم أعلام الإباضية، ص٢٩٨ ص٢٩٩.

(١٣) تحفة الأعيان، ج١، ص١٤٣.

(١٤) النسائي، أحمد بن شعيب (ت٣٠٣هـ)، السنن الكبرى، عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج٥، ص٢٢٩. نص الحديث: (الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

(١٥) محمد بن عيسى السري، نسبة إلى بلاد السر من منطقة الظاهرة. أحد علماء القرن الخامس الهجري، عمل بالقضاء، وكان من وجهاء زمانه، كان له دور في ملابسات توبة الإمام راشد بن علي سنة ٤٧٢هـ انظر: تحفة الأعيان، ج١، ص٣٣٣. وإتحاف الأعيان، ج١، ص٥٣٥ ص٥٣٦. ومعجم أعلام الإباضية، ص٤٢٣ ص٤٢٤.

(١٦) راشد بن علي الخروصي. بويع بالإمامة بعد الإمام حفص بن راشد الذي تولى بعد وفاة والده سنة ٤٤٥هـ ولم تذكر المراجع تاريخ بيعته. أستتيب من قبل العلماء سنة ٤٧٢هـ وخرجت عليه الفرقة الرستاقية بزعامة القاضي نجاد بن موسى سنة ٤٩٦هـ يريدوا عزله، فتمكن منهم وقُتل القاضي نجاد سنة ٥١٣هـ وهي نفس السنة التي توفى فيها الإمام. انظر: تحفة الأعيان، ج١ ص٣٢٠. وقال عنه ابن رزيق: "ثم عقد بعده ـ يعني حفص بن راشد ـ على راشد بن علي فحمدته الخاصة والعامة، وسار سيرة العدل، وقمع أهل البغي والظلام، وكانت وفاته يوم الأحد للنصف من القعدة سنة ست وأربعمائة". ابن رزيق، حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة آلبو سعديين، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ط٢، ١٩٨٣م. ص٢٤٦.

(١٧) السِّيَر والجوابات، ج١، ص٤١٤ ص٤١٥.

(١٨) موسى بن علي بن عزرة (١٧٧ـ٢٣٠هـ)، عالم من إزكي، عمل بالقضاء، ويُعَدُّ مرجعًا للفتوى والحل والعقد. قام بنفسه بأمر الدولة والإمامة عندما كبر الإمام عبد الملك بن حميد. انظر: تحفة الأعيان ج١، الصفحات: ص١٣٥ ص١٤٣. إتحاف الأعيان، ج١، الصفحات: ص ٢٣٨ ص٢٤٩. معجم أعلام الإباضية، ص٤٦٣.

(١٩) انظر تحفة الأعيان، ج١، ص٣٣٨.

(٢٠) الكُلام: أرض غليظة صَليبة أو طين يابس. لسان العرب، مادة: كلم.

(٢١) السِّيَر والجوابات، ج٢، ص٣٣. (الرسالة بعث بها الشيخ يحي بن سعيد النزوي، إلى الشيخ محمد بن طالوت النخلي).

(٢٢) جون سي. ولكنسون، الإمامة في عُمان، ت: الفاتح حاج التوم، وطه أحمد طه، الأرشيف الوطني، أبو ظبي، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م، ص٢٩٥.

[٢٣] الدَّخَل: العيب والغش والفساد. دَخَلًا: أي غشًا بينكم وغلًا. لسان العرب، مادة: دخل.

[٢٤] العَبْلُ: الضَّخْم من كل شيء. لسان العرب، مادة: عبل. (أراد الكاتب أن يقول: لا يُبَيِّتوا من المعاصي التي تغب الله ما ثقل منها أي الكبيرة، أو خف أي الصغيرة).

[٢٥] الخَبَال في الأصل: الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول. لسان العرب، مادة: خبل. (ومن معانيه الخفة .. خفة العقل).

[٢٦] تحفة الأعيان، ج١، ص١٧١.

[٢٧] سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

[٢٨] كارل فون كلاوز فيتز، عن الحرب، تر: سليم شاكر الإمامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٨٥.

[٢٩] الصناعتين، ص١٧١.

[٣٠] ابن رشيق، الحسن القيرواني (ت٤٦٣هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، عنى بتصحيحه أحد كبار العلماء (لم يذكر اسمه)، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ط١، ١٩٢٥م، ج١، ص١٦٧.

[٣١] ابن الأثير، نصر الله بن أبي الكرم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج١، الصفحات: ص١٦٧ ص١٧٢.

[٣٢] تحفة الأعيان، ج١، ص١٤٣.

[٣٣] تحفة الأعيان، ج١، ص٣١١.

[٣٤] لسان العرب، مادة: رسم.

[٣٥] الملك محمد بن مالك، قام على الملك بعد الإمام محمد بن أبي غسان. كان ملكًا عادلًا، حسن الأخلاق، ذا أناة وتؤدة. انظر: تحفة الأعيان، ج١، ص٣٤٢. السيابي، سالم بن حمود، عُمان عبر التاريخ، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ج٣، ط٥، ٢٠١٤م، ص٧٠. ومعجم أعلام الإباضية، ص٤٢٥.

(٣٦) المبرد، محمّد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تعليق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٨م، ج١، ص٣١٦. البيتان للفضل بن العباس شاعر الهاشميين (ت ٩٥هـ).

(٣٧) الكندي، أحمد بن عبد الله بن موسى (ق ٦هـ)، الاهتداء، ت سيدة إسماعيل كاشف، وزارة التراث والثقافة، مسقط، د.ط، ١٩٨٥م، ص١٧٣.

(٣٨) محمد بن أبي غسان (ق ٦هـ). لا تتوفر معلومات كافية عن سيرته، ولا يعرف تاريخ بيعته ولا مدة إمامته. يظن أنه من الطائفة الرستاقية. خالفه أهل العقر من نزوى ولم يدخلوا في طاعته فحاربهم مدة طويلة ووقعت في هذه الحرب أحداث كانت محط نقد من بعض العلماء. انظر: تحفة الأعيان، ج١، ص٣٣٨ وما بعدها. ومعجم أعلام الإباضية، ص٣٧٣.

(٣٩) الطَّغامُ: أَرْذالُ الناس وأَوغادُهم. لسان العرب، مادة: طغم.

(٤٠) الوَبْشُ والوَبَشُ: أَوْباشُ الناس الضُّروبُ المُتفرِّقون. لسان العرب، مادة: وبش.

(٤١) التَّنْميسُ: التلبيس. والنامُوسُ: المَكْرُ والخِداع. لسان العرب، مادة: نمس.

(٤٢) يتشنقصون. الشَّنْقَصَة: هو الاسْتقْصَاء. والشَّنَاقصَة: ضَربٌ من الجنْد، والوَاحدُ شنْقَاصيٌّ. انظر: الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون معلومات إضافية، ج١٨، ص٢٠.

(٤٣) كتاب الاهتداء، ص١٨١.

(٤٤) المثل السائر، ج٢، ص٧٠.

(٤٥) السابق، ص١٢٠.

(٤٦) عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان، الأردن، ط٥، ١٩٩٨م، ص٤٥٣ وما بعدها.

(٤٧) السِيَر والجوابات، ج١، الصفحات: ص٢٢٩ ص٢٤٥.

(٤٨) السِيَر والجوابات، ج١، ص٢٤٨.

(٤٩) الأرْش: من الجراحات ما ليس له قدر معلوم، وقيل هو دِيَةُ الجراحات، وسمي أرْشًا لأنه من أسباب النزاعات. لسان العرب، مادة: أرش.

(٥٠) أهل الذِّمَّة. هم أهل العهد. الرعية من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل كل أصحاب العهد. لسان العرب، مادة: ذمم.

(٥١) الدَّهاقين: التُّجّار، واللفظ فارسي معرب. لسان العرب، مادة: دهق.

(٥٢) المَلوك: هم أصحاب الأموال المملوكة أراض وغيرها، وجمعها أملاك. لسان العرب، مادة: ملك.

(٥٣) الزَّمانة: العاهة، والزَّمنا أصحاب العاهات المزمنة. لسان العرب، مادة: زمن.

(٥٤) إعريض: واحد الأعاريض، وربما يقال لتبيِّن المعروض أي ما شطر فيه القدح في الأعراض والمفاخر؛ لأن السياق كله للمكتوب أو ما كتب فيه. كذلك يلاحظ أن الكاتب استعمل: موسومًا، مرقومًا، دالًا استعمال الحال وهو نكرة، والأصل في صاحب الحال التعريف، فيقال: موسومٍ، مرقومٍ، دالٍ.

(٥٥) كتاب الاهتداء، ص١٩٦.

(٥٦) الخَطْبُ: الشَّأنُ أو الأمْرُ، صغير أو عظيم، وجمعه خُطُوبٌ. لسان العرب، مادة: خطب.

(٥٧) كتبت في أصلها "مستعظمة". انظر: كتاب الاهتداء، ص١٩٠.

(٥٨) الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن محبوب الرحيلي.

(٥٩) أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمي. عالم، وفقيه، وشاعر من حضرموت باليمن.

(٦٠) الحضرمي، إبراهيم بن قيس بن سليمان، أبو إسحاق (ق ٥هـ)، ديوان الإمام الحضرمي (السيف النَّقّاد)، تح: بدر بن هلال اليحمدي، شركة المعالم للإعلام والنشر، مسقط، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٠٥.

(٦١) المثل السائر، ج١، ص١٩٥.

(٦٢) تحفة الأعيان، ج١، ص١٤٠ ص١٤١.

(٦٣) تحفة الأعيان، ج١، الصفحات: ص١٤٥ ص١٤٧.

(٦٤) الصناعتين، ص٢٨٨.

(٦٥) الاهتداء، ص١٨٧.

(٦٦) أحاديث مُلَفَّقَة أي أكاذيب مُزَخْرفة. لسان العرب، مادة: لفق.

(٦٧) كتاب الاهتداء، ص٢١٣.

(٦٨) نفسه.

(٦٩) المثل السائر، ج١، ص٢٤١.

(٧٠) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: محمّد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص١٠ ص١١.

(٧١) تحفة الأعيان، ج١، ص١٤٠ ص١٤١.

(٧٢) الاهتداء، ص١٥٤.

(٧٣) نفسه، ص١٥٧.

(٧٤) الصناعتين، ص٣٣٩.

(٧٥) تحفة الأعيان، ج١، ص١٦٨.

(٧٦) السير والجوابات، ج١، ص٣٣٧.

(٧٧) المثل السائر، ج٢، ص٢٢٤.

(٧٨) الشيخ محمد بن عيسى السري، أحد أبرز علماء القرن الخامس الهجري.

(٧٩) السير والجوابات، ج١، ص٤١٣ ص٤١٤.

(٨٠) نفسه، ص٤١٣.

(٨١) نفسه، ص٤١٤.

المصادر والمراجع:

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، د.ط، شرح وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٤م.

ـ ابن رزيق، حميد بن محمد، الفتح المبين في سيرة السادة آلبو سعيديين، ط٢، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ١٩٨٣م.

ـ ابن رشيق، الحسن القيرواني (ت٤٦٣هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط١، عنى بتصحيحه أحد كبار العلماء (لم يذكر اسمه)، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ١٩٢٥م.

ـ ابن طباطبا، محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الستار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

ـ البطاشي، سيف بن حمود، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان، ط٢، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان، مسقط، ٢٠٠٤م.

ـ الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمّد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥م.

ـ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بدون معلومات إضافية.

ـ السالمي، عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، ط٢، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، ١٣٥٠هـ.

ـ السعدي، فهد بن علي، معجم الفقهاء والمتكلمين الإباضية، ط١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط، ٢٠٠٧م.

ـ السيابي، سالم بن حمود بن شامس، عُمان عبر التاريخ، ط٥، وزارة التراث والثقافة، مسقط، الجزأين: ٣ و٤، ٢٠١٤م.

ـ السِّير والجوابات لعلماء وأئمة عُمان، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، ط٢، وزارة

التراث والثقافة، مسقط، ج١، ١٩٨٩م.

ـ السِّير والجوابات لعلماء وأئمة عُمان، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، ط١، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ج٢، ١٩٨٦م.

ـ العسكري، الحسن بن عبد الله (أبو هلال)، كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.

ـ الكندي، أحمد بن عبد الله بن موسى (ق ٦هـ)، كتاب الاهتداء، تحقيق: سيدة إسماعيل كاشف، د.ط، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ١٩٨٥م.

ـ المبرد، محمّد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، د.ط، تعليق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، القاهرة، ج٤، ٢٠٠٨م.

ـ جون سي. ولكنسون، الإمامة في عُمان، ترجمة: الفاتح حاج التوم، وطه أحمد طه، ط٣، الأرشيف الوطني، دولة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، ٢٠١٠م.

ـ صالح، محمد ناصر، والشيباني، سلطان بن مبارك، معجم أعلام الإباضية، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م.

ـ فضل، حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط٥، دار الفرقان، عمَّان، ١٩٩٨م.

ـ كارل فون كلاوز فيتز، عن الحرب، ترجمة: سليم شاكر الإمامي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧م.